المكان ودلالاته في شعر البسطيّ

د. وفاء جمعة

ملخّص

شكّل المكان حضوراً فعّالاً في النّفس الإنسانيّة، وارتبط بالإنسان ارتباطاً وثيقاً ما جعله راسخاً في ذاكرته، مخلّفاً سجلاً من الذّكريات والمشاعر التي تبقى خالدة سواء أكانت سعيدة أم تعيسة. فيتشكّل المكان وفق الحالة النّفسيّة والاجتماعيّة التي يتعرّض لها الشّاعر ، فعندما تكتنفه حالة شعوريّة اتّجاه مكان ما ؛ فإنّه يلجأ إلى ترجمة مشاعره إلى مجموعة من الأبيات الشّعريّة ... وقد برع الأندلسيّون في توظيف المكان توظيفاً فنّيّاً نفسيّاً ، وأصبح جزءاً لا يتجزّأ من حياتهم ، وتجاوز البعد الجغرافيّ والهندسيّ ؛ ليصبح مكاناً يفوح بدلالات وإيحاءات عديدة للكشف عن الحالة النّفسيّة المستكنّة أو للدّخول إلى عالم الشّعر والشّاعر وفكّ مغالقها وتحليلها .. والبسطي شاعر أندلسيّ عصفت به رياح المكان ، وتركت أثراً واضحاً في حياته ، وانعكست إيحاءاته في متنه الشّعريّ .

كلمات مفتاحيّة :

المكان ، الدّلالة ، البسطيّ ، المكان الأليف ، المكان المعادي ، المكان المغلق ، المكان المفتوح .

* أستاذ مساعد ، قسم اللّغة العربيّة ، كلّيّة الآداب ، جامعة تشرين ، اللاذقيّة – سورية .

Wafaajoumaa59@gmail.com

The place and its evidence in al-Basty's poetry

Dr. Waffa Jumma *

Summary

The place formed anactive presentation in the human feelings and connected by astrong connection with man, which kept it fixed in his memory leaving arecord of memories and feelings which stay forever whether they are happy or sad. The place is formed according to the psychological and social state which the poet is exposed to, when he feels a sensitive state towords such a place; he restores to translating to his feelings to a group of lines of poetry . The andolosians got Skilled in appointing the place art fully and psychologically and it became an important part in his life, and it exceeded the geographic and geometric distance to become a place which leads to evidences and aspirations to show the inner psychological situation or to enter the meanings of poetry and poet and loosing its locks and analyzing it.

Al-Basty is an Andolosian poet affected him the place and left a clear effect in his life and its revelations were reflected in his poetic art.

Key Words :

The place, the evidence, Al-Basty, the tame place, the aggressive place, the closed place, the open place .

*Assistant Professor. Arabic department, Faculty of Art, Tishreen university, lattakia- Syria.
Wafaajoumaa59@gmail.com

مقدّمة :

الإنسان في رباط عميق مع المكان ، يجعله أكثر عمقاً وإدراكاً لمعطياته ؛ التي يمنحها ديناميكيّة التّفاعل ، ويُضفي عليها صوراً جماليّة ، فالشّاعر لا يستطيع أن يبرح المكان الذي يحتويه في حياته ومماته فهو جزءٌ منه [1] . وقد وظّف الشّعراء المكان في شعرهم منذ القديم ، فقد كان عنصراً مهمّاً يشكّل محوراً أساسيّاً وجوهريّاً في قصائدهم [2] ، وربّما يستحيل وجود نصّ شعريّ يتفادى حضور المكان ؛ لأنّه أساس من أسس الفضاء الشّعريّ الذي يعتمده النّصّ الشّعريّ في تشكيل بنيانه وبناء هيكله ؛ لذا فهو البؤرة المركزيّة في هذه العلاقة ، ومنها تتفرّغ بقيّة المفردات [3] .

تعريف المكان :

لغة : جاء في لسان العرب : المكان : الموضع ، والجمع أمكنة كقذال وأقذلة وأماكن .. ومكّن له في الشّيء : جعل عليه سلطاناً ، فابن منظور عدّ لفظة (المكان) محتواة في مادّة (مكّن) الدّالّة على الموضع[4] .

اصطلاحاً :

ظهرت أهمّيّة المكان عند كثير من الباحثين القدماء والمحدثين ، وذلك لارتباطه بالإنسان من جهة ، ووجوده في العديد من المجالات والميادين المعرفيّة والعلميّة من جهة أخرى .

وقد اتّخذ المفهوم المكانيّ بعداً " فلسفيّاً مع الفلسفة اليونانيّة ، إذ أخذ هذا المفهوم معنى يحمل خصائص معيّنة تميّزه عن غيره من المفاهيم الأخرى كالحركة والزّمان والتّناهي واللاتناهي والجسم الطّبيعيّ . ويعنى بالمكان فلسفيّاً هو ما يحلّ فيه الشّيء ، ويميّزه ويحدّه ويفصله عن باقي الأشياء ، ونجد أنّ أوّل استعمال اصطلاحي للمكان في الفلسفة قد صرّح به (أفلاطون) ؛ إذ عدّه مادّياً وقابلاً للشّيء .. " [5] . أمّا بالنّسبة للفلاسفة العرب فقد ذهبوا إلى أنّ المكان هو " الفراغ المتوهّم الذي يشغله الجسم وينفذ فيه أبعاده ، ويرادفه الحيّز " [6] .

ولقي المكان في الدّراسات المعاصرة ، سواء أكانت ذات منحى فلسفيّ أو نقديّ أو بلاغيّ أو لسانيّ اهتمامات كبيرة، ففي المجال الفلسفيّ استقرّت جلّ المعاجم الفلسفيّة على مصطلح المكان، وانطلقت في تفسيره ، اعتماداً على مبدأ الاحتواء ... [7] ، وظلّ مفهوم الاحتواء أو الأبعاد الثلاثة سائداً لفترة زمنيّة طويلة ، ولم يدخل عليه أي تغيير أو تبديل ، فالفلسفة الحديثة بقيت تدور في فلك هذا المفهوم القديم ، وأمّا الإضافات التي زِيدت فقد ارتبطت بفروع العلوم التي انفصلت في الفلسفة خاصّة علم الاجتماع ؛ حيث زاد علماء الاجتماع تصوّراً اجتماعيّاً للمكان يستمدّ دلالته من تجارب وثقافات الإنسان ... وما دام التّنكير والانتساب إلى المكان من ضمن النّشاط الفكريّ الإنسانيّ ، فهو يُعدّ (من المقولات الاجتماعيّة) المصدر ، فلقد ولّدت مقولات الفكر ، ومن ضمنها مقولة الزّمان والمكان ، في باطن الدّين ، ونشأت عن الدّين ، فهي إذن نتاج الفكر الدّيني ؛ والدّين خير ما يُمثّل المجتمع ؛ إذ إنّه ظاهرة اجتماعيّة نشأت عن المجتمع ، ومن هنا كان ما ينشأ عنها اجتماعيّ الأصل بالطّبع؛ ومن ثمّ فمقولات الفكر اجتماعيّة، ومن هنا بدا

---

[1] يُنظر : معمري ، فوّاز ، جماليّات المكان في الشّعر الجاهليّ – المعلّقات أنموذجاً ، رسالة دكتوراه ، جامعة محمّد بوضياف – المسيلة ، 2017–2018 م ، ص28 .

[2] يُنظر : المرجع السّابق نفسه ، ص29 .

[3] يُنظر : سعيد ، طلال زئيل ، تمظهرات النّصّ الشّعريّ الحديث : التّشكيل ، الفضاء ، الرّؤية ، 2017 م ، ص16 http://books.googel.com.about .

[4] يُنظر : ابن منظور ، جمال الدّين بن محمّد بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت – لبنان ، المجلّد الثالث عشر ، ص414 .

[5] العبيدي ، حسن مجيد ، نظريّة المكان في فلسفة ابن سينا ، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة ، بغداد ، ط1 ، 1987 م ، ص19 .
جماليّات المكان في الشّعر الجاهليّ – المعلّقات أنموذجاً ، ص33 .

[6] صليبا ، جميل ، المعجم الفلسفيّ (عربي ، فرنسي ، إنجليزي ، لاتيني) ، دار الكتاب اللبناني ، 1982 م ، ص412 .
جماليّات المكان في الشّعر الجاهليّ – المعلّقات أنموذجاً ، ص33 .

[7] يُنظر : ابن بغداد ، أحمد ، شعريّة المكان في الشّعر الجاهليّ – المعلّقات العشر أنموذجاً ، رسالة دكتوراه ، جامعة جيلالي ليابس ، سيدي بلعباس ، 2015–2016 م ، ص37–40 .

أنّ كلّ تعريف للمكان وجب فيه مراعاة بعده الاجتماعيّ . فالتّقسيمات المكانيّة في صدورها ونشأتها فإنّما يظهر أنّها ليست ذاتيّة أو مطلقة ، وإنّما مقيّدة بتصوّرات المجتمع للمكان ؛ إذ إنّ الإنسان لا يدرك المكان إدراكاً عقليّاً مباشراً ، وإنّما يدركه بفضل وسائط اجتماعيّة لا بدّ من عبورها حتّى يستطيع أن يفهم حقيقة العالم الخارجيّ .

من هنا تبدو الرّؤية الإنسانيّة للمكان قد استمدّت بعض تصوّراتها من علاقة الإنسان بمحيطه بعيداً عن الإدراك العقلي ، إضافة إلى ما يخلّفه من ذكريات وخيال يندرج ضمن الارتباط الوثيق والعلاقة الوطيدة التي يتبادلها المكان مع الإنسان ...

إنّ تطوّر العلوم الإنسانيّة (علم الاجتماع ، علم النّفس) أدّى إلى استعمال مصطلح الفضاء تارّة مرتبطاً بالمكان وأخرى منفصلاً عنه ... [1] ، وبما أنّ المكان هو الحيّز المادّيّ الذي تجري فيه الأحداث ، والمنعكسات الوجوديّة والبيئة المكانيّة التي ولد فيها الشّاعر ، أو هرب إليها ، هي التي تَسِم الشّخصيّة المبدعة ، وتطبعها بطابعها ، فمن الطّبيعيّ أن يحظى المكان بأهمّيّة قصوى في الكشف النّصّيّ ، وهذا يعني أنّ المكان في الشّعر " عنصر مهمّ لا تخلو منه النّصوص الشّعريّة، غير أنّه ليس مجرّد إضافة شكلّيّة فارغة من المدلول ، وإنّما أصبح يُشكّل واحداً من مفاتيح النّصّ الشّعريّ الذي يساعد على كشف مدلولاته واستكناه أسراره ، ممّا جعله في رؤية النّقّاد والمبدعين زاوية النّصّ ، باعتباره المفتاح للولوج إلى فضاء النّصّ والوقوف على حيّز المعاني التي يتضمّنها النّصّ الشّعريّ " [2] .

ومن هنا تأتي أهمّيّة هذا البحث " المكان ودلالاته في شعر البسطي " ؛ لأنّ الشّعراء الذين يملكون نفساً حسّاسة ، ومشاعر شفّافة ، ولديهم المقدرة على تلمّس مشاعرهم ، وتصويرها بالتّعبير عنها بألفاظ عذبة منظومة في عقد شعريّ ، أكثر شعوراً وارتباطاً بالأمكنة ، فنراهم يحملون رؤاهم وتصوّراتهم الخاصّة بها ، وينقلونها إلى المتلقّي عبر قصائدهم ، فالشّعر صورة لما يعانيه الشّاعر من أحاسيس وانفعالات ، وانعكاس لما يُؤثر فيه من عوامل خارجيّة أو داخليّة[3] .

وعلاقة الشّاعر الأندلسيّ بالمكان علاقة وطيدة ، فهو إمّا أن يلجأ إلى تصويره تصويراً خارجيّاً ، يصف ملامحه وأجزاءه ؛ ليستمتع به جماليّاً ، وإمّا أن يعقد بينه وبين المكان علاقة حميمة ، فيخلع عليه الصّفات الإنسانيّة ؛ ليعقد ألفة معه أو مصادقة رغبة البوح ، وإفشاء الأسرار والهموم ، وليشاركه أتراحه وأفراحه ، فنرى المكان تارة يكلّمه وينطق بالحكم والدّرر ، وتارة يضحك ويطرب ، ومرّة يبكي أو يرثي ، وقد ينتشي لانتشاء الشّاعر ، كالرّوض الذي يبتسم ، والأرض التي تصفّق ، وقد ينذر المكان ويتوعّد ، وقد يكون ملجأ وملاذاً لهارب كالجبال ، وقد يرحّب ويستقبل بالبِشر والسّرور .

وقد أدرك الشّاعر الأندلسي أهمّيّة المكان بالنّسبة إليه ، ومدى علاقته به ، فوظّفه في نصوصه الشّعريّة ، فالمكان هو الأرض التي يعيش فيها ، والبيت الذي يسكنه ، والرّوض الذي يتنفّس فيه مع رفاقه ، ويستمتع بما فيه من ألوان الجمال ، والحوانيت التي يعربد فيها مع ندمائه ، والمساجد التي يتعبّد فيها ، والوطن الذي نشأ وتربّى فيه . إنّ المكان يحيط به من كلّ جانب ؛ لذلك أولاه عنايته واهتمامه ، وأصبح شديد اللصوق به .

ومجمل القول : المكان لم يكن حدثاً طارئاً في شعر الشّاعر العربيّ بعامّة ، والأندلسيّ بخاصّة ، أو فكرة عابرة ؛ إنّما هو رؤية خاصّة تشكّلت عنده، ووظيفة عبّر بها عن دلالة معيّنة أرادها أن تصل إلى متلقّيه[4] .

وثمّة كلمة أخيرة أشير فيها إلى أنّ هذه الدّراسة ليس من منهجها العناية بحياة الشّاعر والظّروف التي مرّ بها – وإنْ لم تستبعدها تماماً – لأنّها دراسة نصّيّة تبحث عن المكان في شعر البسطي الذي كان مبعث الحنين والحسرات ، ومحرّك الشّعور ، والكاشف في أعماق الذّات المعذّبة بسبب فراقها الأهل والأحباب ، والمغتربة عن الأوطان .

---

[1] شعريّة المكان في الشّعر الجاهليّ – المعلّقات العشر أنموذجاً ، ص40 .

[2] العميري، أمل بنت محسن رشيد، المكان في الشّعر الأندلسيّ – عصر ملوك الطّوائف، رسالة دكتوراه، المملكة العربيّة السّعوديّة، جامعة أمّ القرى، 2006 م ، ص12–13 .

[3] الأعمري- ياسر فاضل صالح عبد الكريم ، جماليّات المكان وبناؤه في الشّعر العربيّ الحديث في اليمن (1940-2000)، رسالة ماجستير، جامعة عدن، اليمن، 2009 م، ص1 .

[4] المكان في الشّعر الأندلسيّ – عصر ملوك الطّوائف ، ص14–15 .

1- ثنائيّة المكان الأليف (المفتوح) ، والمكان المعادي (المغلق) :

تكوّن هذه الثنائيّة فكرة أساسيّة في تكوين المكان الموضوعيّ الذي يُمثّل الحيّز الموجود المدرك الذي يسبح في فضائه الفعل الاجتماعيّ ، وبوساطته يمكن تتبّع فعاليّة الوجود وإيجاد تجسيم يقوّض التّجاذب الطّردي بين الحضور الطّبيعي بوصفه أثراً إيجابيّاً فاعلاً وبين الحضور الذّاتي بوصفه استجابة متفاعلة ، ومتضادة مع نفسها ومع الآخر أيضاً ، ويتمظهر ذلك التّجاذب الطّرديّ ضمن الإطار المعرفيّ [1] ، والفنّان المبدع يستطيع أن يأخذ ملامح العالم الواقعي ، ويمزج فيه ذاته ؛ ليرسم لوحته الفنّيّة المعبّرة ، فيصبح هذا المكان أو ذاك خاصّاً به هو الذي يحدّد أبعاده من خياله الخلاّب .

وتشكيلات المكان الموضوعي ضمن إطار ثنائيّة (المكان الأليف / المكان المعادي) في الشّعر يستثير من الذّاكرة ما انطبع بها اتّجاهه – أي المكان – من تصوّر فردي أو جمعيّ ، ويستمدّ قيمته الإبداعيّة من جوهر الموقف الإنسانيّ العامّ اتّجاهها ، والاستجابة الشّعوريّة أو اللاشعوريّة إليها ؛ فحسّ المكان حسٌّ أصيل عميق في الوجدان البشري [2] .

ويمكننا القول : إنّ علاقة الإنسان بالمكان ليست سهلة ، بل معقّدة ، وتنطوي على جوانب شتّى فهناك أماكن جاذبة تساعدنا على الاستقرار ، وأماكن طاردة تلفظنا ، فالإنسان لا يحتاج إلى مساحة فيزيقيّة جغرافيّة يعيش غيها ، ولكنّه يصبو إلى رقعة يضرب فيها جذوره ، وتتأصّل فيها هويّته ، وممّا لا شكّ فيه أنّ هناك أماكن يرفضها الإنسان ، وأخرى يرغب فيها ، فكما أنّ البيئة تلفظ الإنسان أو تحتويه ، فإنّ الإنسان – طبقاً لحاجته – ينتعش في بعض الأماكن ، ويذبل في بعضها [3] .

إنّ هذا التّقسيم ليس له ضوابط أو حدود منهجيّة صارمة ، وهو تقسيم نسبيّ ، فقد يتداخل طرفا الثّنائيّة الضّدّيّة في تشكيل فنّيّ إيحائيّ يتحوّل فيه المكان المعادي إلى مكان أليف ؛ وبالعكس [4] ، فقد تكون الأماكن الضّيّقة المغلقة المعادية مرفوضة ؛ لأنّها صعبة الولوج، وقد تكون مطلوبة؛ لأنّها تمثّل الملجأ والحماية التي يأوي إليها الإنسان بعيداً عن صخب الحياة، وتكون صورة للرحّم[5] .

إنّ فكرة الانغلاقيّة والانفتاحيّة (مكان مغلق / معادي – مكان مفتوح / أليف) مسألة نسبيّة تحتكم إلى زاوية النّظرة ؛ فما أراه مكاناً مغلقاً (السّجن) يراه غيري مكاناً مفتوحاً ، وهنا يصبح المكان المعادي المناوئ أليفاً ومحبّباً [6] ، وهذا ما وجدناه في القرآن الكريم على لسان سيّدنا يوسف عليه السّلام ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة يوسف : الآية 33] ، وهذا ينسف مفهوم الإغلاق والانفتاح – المعادي والأليف ، فالإغلاق يساوي الانفتاح في معناه السّلبيّ ، والنّظرة ذاتها يمثّلها مرّة أخرى نموذج سوبرفيل حين يقول : " انفساح المكان أكثر ممّا يجب يشعرنا بالاختناق أكثر من المكان الأضيق ممّا نحتاج " [7] ، ولكي نزيل الالتباس ... نقول بقسمة عادلة : (شاعر / قصيدة) شاعر وراء قضبان بقفل محكم ومغلق وقصيدة سابحة في فضاء جماليّ شعريّ [8] .

1-1 : المكان الموضوعيّ الأليف :

---

[1] يُنظر : العامريّ ، ساهرة عليوي حسين ، المكان في شعر ابن زيدون ، رسالة ماجستير ، جامعة بابل ، 2008 م ، ص22 .

ويُنظر : الرّكابي ، ناجي عبّاس مطر ، دلالات المكان الشّعريّ – دراسة في شعر حسيب الشّيخ جعفر ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ، العراق ، 2005 م ، ص17 .

[2] يُنظر: المكان في الشّعر الأندلسيّ – عصر ملوك الطّوائف ، ص21-22 .

[3] يُنظر : المرجع السّابق ، ص10 .

[4] يُنظر : المكان في شعر ابن زيدون ، ص22 .

[5] يُنظر : لوتمان ، يوري ، مشكلة المكان الفنّيّ ، تر: سيزا قاسم ، ص83 .

و : المكان في الشّعر الأندلسيّ – عصر ملوك الطّوائف ، ص10 .

[6] يُنظر : برقرق ، ريمة ، شعريّة الفضاء المغلق – حاضرة إشبيلية – السّجن أنموذجاً ، رسالة ماجستير ، الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة ، جامعة الحاج لخضر – باتنة ، 2009 م ، ص26 .

[7] يُنظر : غاستون ، باشلار ، جماليّات المكان ، تر: غالب هلسا ، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع ، لبنان ، ط5 ، 2000 م ، ص198 .

[8] يُنظر : شعريّة الفضاء المغلق – حاضرة إشبيلية – السّجن أنموذجاً ، ص27 .

هو ذلك المكان الذي عشنا فيه وتآلفنا معه، وغمرنا بالدّفء والحماية، وأصبح كلّ ركن فيه مادّة خصبة لذكرياتنا الجميلة[1] ، فالمكان الأليف ليس مكاناً اعتيادياً ، وإنّما هو مكان قد امتزج فيه الخيال بأحلام اليقظة حتّى بات مصدراً من المصادر المهمّة التي تلهم الذّاكرة بالصّور الإبداعيّة [2] . ومن خلال استقرائنا لديوان البسطي وجدنا أنّ المكان الأليف يتمثّل بالمدينة والمجالس ، أمّا الطبيعة فأخذت دلالة خاصّة وتمثّل المكان فيها (بالحدائق) ، وهذه الأمكنة تأخذ طرفي ثنائيّة (المكان الأليف / المكان المعادي) وهذا ما ستكشفه الدّراسة النّصّيّة التّحليليّة التي اعتمدناها في البحث .

والمدينة حيّز مكانيّ لها حدود هندسيّة ، ولها دلالات رمزيّة واسعة ، وقد امتزجت بروح شاعرنا البسطيّ، وتغنّى بها بعد أن عصفت به رياح المدينة وتقاذفته، ومن سجنه في آبرة مخاطباً صديقه أبا عبد الله بن رجاء ، من القصيدة التي مطلعها ؛ من الكامل :

يـــا أفضـــل الإخـــوان يـــا ابـــن رجـــاءِ ... غيـــري لغيـــركَ بالإخـــاء يرائـــي...
فحصـــلْتُ فـــي الأســـر الـــذي أدواؤه ... لرهينـــةٍ مـــن أعظـــم الأدواءِ
أجنـــي مذلّتـــه وضـــيقَ قيـــوده ... بعـــد اجتنـــاء العـــزّة القعْســـاءِ
مـــع مـــا أعانيـــه ببعـــدي دائمـــاً ... عـــن بســـطة المأنوســـة الأرجـــاءِ
حيـــثُ البطـــاحُ كـــأنّهنَ صـــحائفٌ ... رُقِمَـــتْ بـــإبريز مـــن الأضـــواءِ
حيـــثُ الحـــدائقُ فُتِّحَـــتْ أزهارُهـــا ... عـــن وجنـــة المعشـــوقةِ العـــذراءِ
حيـــثُ الطّيـــورُ ترنَّمـــتْ فـــي دوحهـــا ... فأتَـــتْ بمثـــلِ تـــرنّمِ الشّـــعراءِ
حيـــثُ النّســـيم إذا ســـرى مالـــت بـــه ... طربـــاً غصـــون البانـــةِ الميســـاءِ
حيـــثُ الجـــداول كالسّـــيوف إذا مضـــت ... موصـــوفةً أبـــداً بحســـن صـــفاءِ
حيـــثُ التّـــرابُ كأنّـــه مـــن لؤلـــؤٍ ... متنـــاثرٍ أو فضّـــةٍ بيضـــاءِ
جـــلّ الـــذي أبـــدى عجائـــبَ صـــنعِهِ ... فبـــدت تقيّـــدُ أعـــينَ النّظـــراءِ[3]

تشكّلت في النّصّ ثنائيّة (الإنسان / المكان) بين طرفيها علاقة بعد زمانيّ يُشكّل بدوره ثنائيّة (الماضي / الحاضر) ، ومنها تتولّد ثنائيّة (القرب / البعد) ، (المكان المعادي المغلق / المكان الأليف المفتوح) تصحبها أماني في النّفس المعذّبة التي تريد عودة الماضي ؛ لأنّه يجمع (الأنا / الآخر) على أرض الوطن الأمّ (بسطة) .

إنّ الصّورة الشّعريّة التي يرسمها النّصّ تؤكّد المعاناة النّفسيّة التي تسيطر على مخيّلة الشّاعر ، فتجعله يبدأ نصّه بأداة النّداء (يا) ، مُستهلاً بها مدح صديقه ، ثمّ يذكر معاناته في المكان المعادي المغلق (السّجن) ليحلّق بعد ذلك بذكرياته في استحضار المكان الأليف المفتوح (بسطة) ؛ ووصف ما احتفظت به الذّاكرة من صور أدبيّة رائعة ، ولم تكن هذه الصّورة نقلاً لمشاعره فقط ، وإنّما هي صورة للزّمن . هذه الصّور التي يرسمها الشّعراء في تصويراتهم ، لم تكن اعتباطيّة في تشكيلاتها [4] ، وإنّما هي صور ترسّبت في لاشعور الشّاعر ، ولم يثرها ها هنا ولم يجمع بينها إلاّ شعورٌ خفيٌّ بالخوف من المستقبل ، من الفكرة الهرمة التي دخلت ميراث الشّاعر الرّوحيّ [5] . إنّ الذّات تحنّ وتذكر ، والشّاعر يحاول ردع ذاته عن الحنين إلى بسطة ؛ لأنّ الحنين إليها يوجعه ويكاد يقتله ، ولكنّ ذاته تعصيه بل تتذكّر كلّ تفصيل في المكان الأليف المفتوح (بسطة) .

يقول من قصيدة مطلعها ، من الكامل :

---

[1] يُنظر: الحميري ، د. عبد الواسع، الذّات الشّاعرة في شعر الحداثة العربيّة ، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر ، ط1 ، 1999 م ، ص12 .

[2] يُنظر : المكان في شعر ابن زيدون ، ص25 .

[3] البسطي ، عبد الكريم القيسيّ ، ديوان عبد الكريم القيسيّ البسطيّ ، تح: د. شيخة ، جمعة ، ود. الطّرابلسيّ ، عبد الهادي ، تونس ، المؤسّسة الوطنيّة للتّرجمة والتّحقيق والدّراسات ، بيت الحكمة ، 1988 م ، ص97 ، القصيدة 35 .

[4] يُنظر : المكان في شعر ابن زيدون ، ص38 .

[5] السّامرّائي ، د. إبراهيم ، البنية اللّغويّة في الشّعر العربيّ المعاصر ، دار الشّروق للنّشر والتّوزيع ، عمّان ، ط1 ، 2002 م ، ص56 .

لبليّتـــــي يبكـــــي الحمـــــام هـــــديلا ولمحنتـــــي يرثـــــي العـــــدوّ طـــــويلا...
ودع الحنـــــين لبســـــطة وربوعهـــــا إنّ الحنـــــين يهـــــيج منـــــك غلـــــيلا
واتـــــرك حـــــديث جنـــــان رومـــــةَ جملـــــةً وجنـــــان عـــــين قَنُـــــولشٍ تفصـــــيلا
المنيـــــة الغـــــرّاء دعْ تخييلهـــــا إيّـــــاك إيّـــــاك احـــــذر التّخيـــــيلا
حيـــــث الجـــــداولُ ماؤهـــــا مُتفجّـــــرٌ أضـــــحى الصّـــــغير بهـــــا يفـــــوق النّـــــيلا
حيـــــثُ البطـــــاحُ كأنّهـــــا صـــــحفٌ بـــــدَتْ تهـــــوى الجفـــــونُ بحســـــنها التّكحـــــيلا
حيـــــثُ الظّـــــلالُ توارفَـــــتْ وتفيّـــــأتْ بجوارهـــــا تهـــــوى النّفـــــوس مقـــــيلا
حيـــــثُ التّـــــرابُ لطيبـــــه ولحســـــنه تهـــــوى الشّـــــفاه تســـــومه تقبـــــيلا
تلـــــك الرّبـــــوع بهـــــا الفـــــؤاد مُتـــــيَّمٌ عمّـــــا يحـــــنُّ بهـــــا أبـــــى التّنقـــــيلا [1]

فحنين الشّاعر إلى رياض (بسطة) بكلّ ما فيها من كائنات حيّة وطبيعة صامتة وجمادات ، جعلها تنبض بالحياة ، وتضجّ بالحيويّة والنّشاط ، وهذا يوحي بشدّة تعلّق الشّاعر بمدينته (بسطة) ، وحنينه العارم إليها ، وهو حنينٌ إلى ما تمتّع به الشّاعر من حياة حرّة كريمة في رياضها ؛ لذلك نجده يلجأ في التّعبير عن شوقه لها إلى التّكرار اللفظيّ ، حيث يُؤكّد على البيئة المكانيّة ، وما تحمله من دلالات وإيحاءات ترصد أغوار نفسه المعذّبة ، وتلهفها لعالم النّور والحياة .

وهو ينصّ في هذه الأبيات على موضعين كانا في متنزّهات بسطة المعروفة : مرج رومة ، وفحص قلولنش أو قنولش ، ونحن نرى في البيت الأخير من القطعة الثانية صورة لهذه المبالغات التي اشتهر بها الأندلسيّون حتّى اليوم حين يفخرون ببلادهم ، ويفضّلونها على سائر البلاد ، فعبد الكريم يرى أنّ أصغر جداول بسطة يفوق النّيل ، وهو بذلك يكرّر ما ردّده أهل غرناطة من التّمدّح بنهرهم الصّغير (شنيل) الذي تقع عليه مدينتهم ، فمن الطّريف أنّ اسم هذا النّهر وهو أحد فروع الوادي الكبير ، يتألّف من مقطعين (الشّين) وهو حرف بربريّ يعني (الألف) و (نيل) نهر مصر المشهور ، فمعنى اسمه عندهم (ألف نيل) وقد نظم شعراؤهم ذلك ، فقال :

إنْ كـــــان فـــــي مصـــــر نيـــــل فعنـــــدنا ألـــــف نيـــــل[2]

2-1 : المكان غير الأليف – المعادي / المغلق :

هو المكان الخانق ، الملقى خارج النّفس ، الذي يثير في الذّات الإنسانيّة الخوف والقلق لدرجة الاختناق ، وتكون العلاقة بينه وبين الشّخص علاقة عدائيّة سلبيّة [3] ، والشّاعر يرفض المغلق عامّة ولا يألفه ؛ لأنّه يفقد فيه توازن الحركة ، ويشعر بالعزلة والانقطاع والغربة وعدم التّواصل ، ويشعر أنّ المحبوس هو إدراكه ووعيه ، فالقضيّة الكبرى التي يؤمن بها في المجال الإنسانيّ هو حريّة الذّات والوعي النّفسيّ ، وانطلاق الذّات المبدعة في فضاءات الزّمان والمكان ، وهذا لا يمكن تأتّيه في السّجن ، حين تنحبس الذّات بانحباس القدرة الجسديّة ، إنّ السّجن جريمة في حقّ إنسانيّة الذّات وتعبيرها عن نفسها ، وكبت للخيال الإنسانيّ المقدّس ، والفيض المثاليّ النّاشئ عن العلاقة بين الإنسان ومحيطه الطّبيعيّ ؛ فيعاني الاغتراب بكلّ أنواعه وتفاصيله النّفسيّة المؤلمة .

ويتجسّد المكان المعادي / المغلق في شعر البسطيّ في السّجن خاصّة ، وحضوره حيويّ وفاعل في النّصّ الشّعريّ ، لكنّه حضور سوداويّ سلبيّ ؛ إذ يسبّب أزمة في لاوعيه . والمكان المغلق حالة من الحجز والحصار والتّعذيب الجسديّ والنّفسيّ ، وهو يولّد

[1] البسطي ، الدّيوان ، ص108–109 . القصيدة 40 .
[2] يُنظر : مكّي، د. علي محمود، عبد الكريم بن محمّد القيسي الغرناطيّ – آخر شعراء الأندلس، مجلّة العربيّ الكويتيّة، العدد 107، 1967 م ، ص55–56 .
[3] يُنظر : المكان في شعر ابن زيدون ، ص47 .

غربة وتوتّراً وألماً ، ويفضي بالشّاعر إلى رفض وجوده فيه [1] . فالشّاعر لشدّة ما يلاقيه من عذاب الأسر ، ومعاناته في السّجن ، فهو يفضّل الموت على البقاء في هذا العذاب الجسديّ والنّفسيّ ؛ يقول من المجتثّ :

إن لـــــــم تيسّـــــــر ســـــــراحي ... يـــــــا ربّ يسّـــــــر ممـــــــاتي
فـــــــالموت عنـــــــدي خيـــــــرٌ ... مـــــــن خـــــــدمتي للحيـــــــاةِ [2]

أو قوله من البسيط :

المـــــوت أهـــــون مـــــن أَسْـــــر بـــــآبرةٍ ... عنـــــد الـــــذي ذاقـــــه مـــــن النّـــــاس
مـــــا ذاك إلاّ لمـــــا يلقـــــى الأســـــيرُ بهـــــا ... مـــــن الثّقـــــاف العظـــــيم الخطـــــب والبـــــاس [3]

قام الشّاعر البسطيّ بتصوير (المكان غير الأليف – المعادي) مظهراً من خلاله ما يعانيه من ألم وحسرة ؛ يقول من الكامل ، من القصيدة التي مطلعها :

إنّـــــي فضضْـــــتُ عـــــن الـــــدّموعِ ختامـــــا ... فغـــــدت تســـــيل بـــــوجنتيّ غمامـــــا...
فـــــي قعـــــر بيـــــتٍ غولُـــــه مجموعـــــةٌ ... والهـــــام فيـــــه قـــــد أجـــــاب الهامـــــا
مـــــا لـــــي بـــــه أنـــــسٌ ســـــوى تـــــذكاركم ... ومـــــدامعٌ حمـــــرٌ تفـــــيض ســـــجاما
وبجـــــامعٍ جُمعَـــــتْ يـــــداي وقرمـــــةٍ ... منعَـــــتْ قيـــــامي إنْ أردت قيامـــــا
والشِّـــــبَّ والإبريـــــق كـــــلٌّ منهمـــــا ... نُصْـــــبَ العيـــــان بجـــــانبي قـــــد قامـــــا [4]

يلتقط لنا الشّاعر صورة عن البيئة المكانيّة التي مكث فيها ردحاً من الزّمن ، صورة ترصد لنا سوء الأحوال في سجون الأعداء ، فهي أبنية رديئة من النّاحية الصّحّيّة ، قذرة ، مرتع للحشرات ، مخيفة ، والهدف من ذلك تحطيم كبرياء السّجين ، وهدر كرامته ، وإذ لا له بعد سلب حريّته وحرمانه من حقوقه الإنسانيّة ، ولا يخفى ما في هذا النّصّ من حزن ممضّ ، وعبرات منكسرة تكاد تضيق بها النّفس المغتربة ، والتي تعاني القلق والحنين وفقدان الأهل والأحباب نتيجة الاستبداد والقهر ، تصاحبها معاناة حادّة وألم نفسي وروحيّ ، فما بالك بالبسطي الذي يعيش الغربة المكانيّة والزّمانيّة في ظلام السّجن . ويقول من أخرى ، من الطّويل ، مطلعها :

حـــديث الهـــوى أحلـــى مـــن الشّـــهد فـــي الفـــم ... إذا مـــــا دعـــــاه سَـــــمْعُ صَـــــبٍ متـــــيّمِ
بقيـــــت كمـــــا تـــــدري أســـــيراً مقيّـــــداً ... بقيـــــدِ حديـــــدٍ أكحـــــل اللـــــون أدهـــــمِ
شـــــبيهٌ لـــــه بالرّجـــــل منّـــــي التفافُـــــهُ ... إذا نّظـــــرتْ عينـــــي إليـــــه بـــــأرقمِ
رَمـــــاني زمـــــاني منـــــه عـــــن قَـــــوْس صَـــــرْفِهِ ... بـــــآبُرَةٍ بـــــين العُـــــداةِ بأســـــهمِ
وصـــــيّرني فـــــي خدمـــــة الكفـــــر جاهـــــداً ... وقـــــد شـــــفَّ جســـــمي خـــــدمتي وتخـــــدّمي [5]

إنّ هذه الأبيات تصوّر لنا أساليب التّعذيب التي استخدمها الأعداء ضدّ الأندلسيّين ، مفرّغين بذلك حقدهم الدّفين . لقد كانت آثار القيود الأليمة في نفس الشّاعر استمدّ من الطّبيعة الحيّة صورة مرعبة منفردة ، صورة الأفعى بسمومها وآثارها على النّفس ، ونهشها في اللحوم . لقد كانت صورة الأفعوان وسيلة التّعبير عن معاناة السّجين القيسيّ المزدوجة فهي لم تحدّ حرّيته ، وتشلّه عن الحركة فحسب ، بل حدّت من طموحاتهِ وآماله في الخروج إلى عالم الحياة ، وجعلت اليأس يتسرّب إلى نفسه ؛ إذ خلّفت هذه القيود في الجسد آلاماً ، وفي النّفس جروحاً غائرة .

---

[1] سكّر ، د. روان ، المكان المغلق في شعر ابن زيدون ، مقال : http://eisada.net .

[2] الدّيوان ، ص197 ، القصيدة 94 .

[3] الدّيوان ، ص195 ، القصيدة 92 .

[4] الدّيوان ، ص101–103 ، القصيدة 37 . الجامع : غلّ يشدّ الأيدي بالرّقبة . يُنظر : لسان العرب ، كلّ ما تجمّع وانضمّ بعضه إلى بعض ، المجلّد الثامن ، ص56 . القرمة : أغلال تجعل فيها الرّجل والعنق . الشِّبّ : خشبتان تشدّ بهما ساقا الأسير ، والكلمة إسبانيّة الأصل . الإبريق : الشِّبّ .

[5] الدّيوان ، ص36 و 39 ، القصيدة 4 .

ما أشدّ وطأة العذاب ووقعها على نفسه ، لقد أبعد عن وطنه وأهله لتأخذ غربته الرّوحيّة والمكانيّة شكلاً آخر ؛ شكّل غربة عقائديّة ، فقد حرموه حقّ التّواصل مع ربّه ، فكيف يُؤدّي فرائضه ، وهم لا يسمحون له بالتقاط أنفاسه من شدّة الأعمال الموكلة إليه ؛ يقول ، من القصيدة التي مطلعها ، من الكامل :

يـــا أفضـــل الإخـــوان يـــا ابـــن رجـــاء غيـــري لغيـــرك بالإخـــاء يرائـــي...
أصـــل الصّـــباح مـــع المســـاء لـــديهمُ فـــي الخدمـــة المعهـــودة الإعيـــاءِ...
حتّـــى ضـــعفْتُ ورمَّـــه جســـمي بيـــنهم وتغيّـــرت عـــن حالهـــا أعضـــائي
وتقرّحَـــتْ منّـــي الجفـــونُ بـــدمعها وتقطّعـــت بلهيبهـــا أحشـــائي
وأكـــاد أُخفـــى للنّحـــول وللضّـــنى لـــولا أنينـــي حســـرةً وبكـــائي...
وأمـــرُّ مـــا ألقـــاه أنّـــي عـــاجزٌ عـــن أن أخـــصّ فرائضـــي بـــأداءِ [1]

ويستمرّ في وصف الحالة النّفسيّة والحزن الذي يعصر قلبه ، واليأس الذي استوطن فكره ، يقول ؛ من الكامل :

واحســـرتي بعـــد اشـــتغالي بـــالعلو مِ ودرســـها وتـــلاوة القـــرآن...
إنْ لـــم أكـــن بـــالحفر مشـــتغلاً أكـــن بالهـــدمِ مشـــتغلاً مـــع البنيـــان...
وبغســـل أقـــذار الكـــلاب تحرّفـــي فـــي أكثـــر الأوقـــات والأزمـــان
فثيـــابهم أدرانُهـــا مغســـولَةٌ بيـــدي وثـــوبي الـــدَّهر بـــالأدران [2]

إنّ الأعمال الشّاقّة كلّها التي يسندونها إليه لا تثير غضبه بقدر ما يثيرها غسل ملابسهم الدّنسة ؛ في حين يحتاج الشّاعر نفسه إلى من يخدمه ويغسل ثيابه . ويستحيل الزّمن عند البسطي إلى زمن نفسيّ مرتبط بالمكان ، وبمعاناته ، يقول ؛ من البسيط :

أعـــاذك اللهُ مـــن أســـر بـــآبرةٍ فـــالعينُ فـــي أســـرها لـــم تكتحـــل بِســـنَهْ
ناهيـــك مِـــنْ بلـــدٍ يـــومُ الأســـيرِ بـــه شَـــهْرٌ وليلتُـــه معـــدودةٌ بسَـــنَهْ [3]

ولا غرو أن يشعر القيسيّ بطول المكث في الأسر ، حتّى بات يرى الليلة سنة لا سبيل إلى الخلاص منها ، فالزّمن بالنّسبة للبسطيّ زمن يختلف عن الزّمن الطّبيعيّ ، فهو يمتدّ ويطول ، وهو مرتبط بالحالة النّفسيّة لديه . لا شكّ أنّ متابعة العلاقة بين الزّمان والمكان في فضاء الإبداع الشّعريّ تعني التّعمّق في جوهر الرّؤية الشّعريّة ... وربّما لا يتحقّق الأثر النّفسيّ الجماليّ إلاّ بتلاحم الرّؤية الزّمكانيّة في النّصّ الواحد ، ومع هذا التّلاحم " يستحيل الزّمن بموجب محتوى النّصّ إلى سلسلة من الحركات المتموّجة المختلطة التي تتلاعب في إدراك المشاعر ، بحيث تتشكّل اللحظة الحاضرة في الإدراك المركّب للماضي ، وإنْ بصورة مشوّشة عند بعض الشّعراء ، فلحظات الماضي التي تعوّل على لحظات الحاضر أو في المستقبل ، وتتيح للقارئ أن يجد فيها أبعاداً جديدة " [4] .

فقد أشار البسطيّ إلى تماهي زمان الفرح واللهو والسّرور بمكان الفرح ، فالزّمن الماضي يحمل الذّكريات الجميلة كونه ارتبط بالمكان الأليف/المفتوح، فنجده يتلهّف إلى ذلك المكان هرباً من الحاضر، زمن الحزن والبكاء في المكان غير الأليف المعادي/المغلق (السّجن) ، يقول ؛ من الكامل :

لبليّتـــي يبكـــي الحمـــامُ هـــديلا ولمحنتـــي يرثـــي العـــدوّ طـــويلا
ولـــبعض مـــا ألقـــاه تنصـــدع الصّـــفا والغيـــث يهمـــي بكـــرة وأصـــيلا
أســـرٌ تصـــاحبه القيـــودُ وضـــيقُها ومتاعـــبٌ تـــذرُ الفـــؤاد علـــيلا

[1] الدّيوان ، ص97-98 ، القصيدة 35 .
[2] الدّيوان ، ص196 ، القصيدة 93 .
[3] الدّيوان ، ص196 ، القصيدة 93 .
[4] جماليّات المكان وبناؤه في الشّعر العربيّ الحديث في اليمن ، ص1 .

يـــا شـــامتاً بـــي وهـــو يُظهِـــرُ رحمـــةً اصـــبر – فـــديتُك – للزّمـــان قلـــيلا[1]

نجد الشّاعر يحنّ إلى المكان الذي حمل في طيّات زمنه أحلى أيّام الشّاعر ، أيّام فرحه ، فإنّ شغفه بالمكان قائمٌ على حنينه للزّمان المرتبط بهذا المكان ، ويُؤجّج هذا الشّعور باستمرار ؛ ليس بسبب وجوده في زمن الذّلّ والانكسار فقط ، وإنّما لارتباط هذا الذّلّ بالمكان المعادي / المغلق (السّجن) .

المكان غير الأليف / المغلق ← الذّلّ والانكسار ← الحزن ، البكاء .

المكان الأليف / المفتوح ← الكرامة والعزّة ← الفرح والاستبشار .

فالشّاعر يُشير إلى زمكانين مختلفين ، مقارناً بين حالتين نفسيّتين متناقضتين ، هذه الثنائيّة الضِّدّيّة أعطت للنّصّ حركة سريعة إلى العالم المفتوح بعدما أحسّ الشّاعر بضيقٍ شديدٍ من ألم الفراق ، وشدّة المصائب وشماتة الأعداء ؛ وهو يعيش في السّجن وحيداً . إنّ مثل هذا الشّعر يكون تعزية للنّفس وما حلّ بها من مصائب ؛ لذلك كانت أشعاره التي أرسلها من السّجن نفحات ذات تعتصر ، إنّه وصفٌ للذّات التي تعيش في داخل السّجن . أمّا موضوعات الذّات التي تعيش في ظلمة السّجن فكانت تدور في فلك الاستعطاف من خلال المدح ، ووصف المأساة ، واستحضار الماضي عن طريق الخيال والشّوق والأهل والأحباب .

2- دلالات المكان عند القيسيّ :

يسعى الشّاعر من خلال استدعاء المكان إلى خلق فنّي جديد للمكان ، فهو لا يسعى إلى تصوير ذلك المكان أو ذكر صفاته وحقائقه ، بل يعمل على إعادة خلقه من جديد ، مستلهماً كلّ إيحاءات المكان وما تفوح منه من دلالات تغني فكر الشّاعر وثقافته الشّعريّة [2] .

فالشّاعر العربيّ قد أثّر فيه عامل المكان فوظّفه في قصائده ، تحكمه أبنيته الثّقافيّة ، ومرجعيّاته اللّغويّة ، فللمكان دورٌ مهمٌّ في تشكيل القصيدة عند الشّاعر الأندلسيّ ، فلم يعد ذلك البعد الجغرافيّ ذا الحدود المتعارف عيها من طول وعرض ومساحة خاصّة ، إنّما أصبح له بُعد تجريدي يشعّ بالعديد من الإيحاءات والانعكاسات التي تتيح للشّاعر أن ينطلق من خلاله إلى عالمه الفسيح المصاحب للخيالات والأحلام والذّكريات؛ إذ من خلال المكان يستحضر الشّاعر مجموعة آلامه وآماله ، وأفراحه وأتراحه [3] .

فالمكان يظهر بكلّ تفصيلاته بهذا الشّعر ، كقوّة قادرة على تلخيص تاريخ الحالة ، وعلى الاحتفاظ بمعانٍ وتشكيلات لا توجد في سواها ، وعلى قدرتها على إعطاء هذا الشّعر طاقة متميّزة [4] . هذا وقد شكّل تمسّك الشّاعر الأندلسيّ بالمكان، وتردّده في شعره، جملة من الدّلالات تفسّر عنايته به ، كما تعطى تصوّراً لما تحمله رؤيته الخاصّة بالأمكنة ؛ فالمكان يتشكّل دائماً ويتلوّن وفق الحالة الإنسانيّة [5] . وهكذا تتعدّد فضاءات المكان ، وتتنوّع بحسب رؤية الشّاعر ، ووعيه وثقافته ، فقد يستحضر الشّاعر المكان ؛ ليعبّر عن دلالة نفسيّة أو اجتماعيّة أو قوميّة أو دينيّة ، أو جماليّة أو تأريخيّة [6] .

2-1 : الدّلالات النّفسيّة :

---

[1] الدّيوان ، ص108-109 ، القصيدة 40 . وقد مرّ ذكر هذه القصيدة سابقاً في ص6-7 من هذا البحث .

[2] يُنظر : الجبّوري ، د. جمعة حسين يوسف ، المضامين التّراثيّة في الشّعر الأندلسيّ في عهد المرابطين والموحّدين ، ط1 ، دار صفاء ، عمّان ، مؤسّسة دار الصّادق الثّقافيّة ، ط1 ، 2012 م ، ص187 .

وينظر : بوداب ، نور الإيمان ، المكان في الشّعر الأندلسيّ (ابن حمديس أنموذجاً) ، رسالة ماجستير ، الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة ، جامعة العربي بن مهيدي أمّ البواقي ، 2015 م ، ص41 .

[3] يُنظر : المكان في الشّعر الأندلسيّ – عصر ملوك الطّوائف ، ص17 .

[4] يُنظر : حمادي ، عبد الرّحمن ، ماهيّة المكان لدى شعراء الجنوب ، العنوان الثّاني والثالث ، دار المنظومة ، (20 و 21) ، السّنة الرّابعة ، 1982 م ، ص277 . ويُنظر : المكان في الشّعر الأندلسيّ – عصر ملوك الطّوائف ، ص17 .

[5] الشّرع ، علي أحمد حسين ، ابن خفاجة وتشكيل النّصّ : الذّات تبحث عن نفسها في إطاري الزّمان والمكان ، مجلّة دراسات ، مج18 ، العدد34 ، عمادة البحث العلميّ ، الجامعة الأردنيّة – عمّان ، ص194 .

[6] المكان في الشّعر الأندلسيّ – عصر ملوك الطّوائف ، ص14 .

لا عجب أن يكون للحالة النّفسيّة التي يتعرّض لها الشّاعر أثرٌ في تشكيل رؤيته للأمكنة ، فالشّاعر حينما تكتنفه حالة شعوريّة تجاه مكان ما ؛ فإنّه يلجأ إلى ترجمة مشاعره التي انتابته ، فيُحيلها إلى مجموعة من الأبيات الشّعريّة تعطي تصوّراً دقيقاً لحالته تلك ، فالشّاعر يعيش في ظلّ المكان [1] . إنّ الشّاعر شديد اللصوق بالمكان ، فعند إحساسه بالأمان والحماية والأنس زاد لصوقه به ، ومتى ما أحسّ بالبعد والوحشة والخوف نجده كارهاً للمكان ، طالباً مغادرته .

وفي ضوء ذلك يمكننا تقسيم الدّلالات النّفسيّة إلى أقسام متعدّدة بحسب علاقة الشّاعر النّفسيّة ، وهي :

أ- الحنين إلى المكان . ب- العشق للمكان ج- النّفور من المكان د- الرّثاء للمكان .

الحنين إلى المكان :

لقد عزف القيسي على وترٍ عميقٍ في النّفس ألا وهو الحنين إلى الوطن / المكان الأليف الذي أقصى عنه ، فشعر بوطأة الاغتراب على نفسه ، فالاغتراب النّفسي ولّده الاغتراب المكاني ، فأسمعنا آهات حنينه إلى بلدته بسطة. إنّ من يسمع أشعاره من المكان المعادي ، فإنّه سيشعر بنغمة حادة تفيض ألماً وحسرةً على وطنه ، على أماكن لهوه وسروره . يقول ؛ من الكامل :

مـــع مـــا أعانيـــه ببعـــدي دائمـــاً عـــن بســـطة المأنوســـة الأرجـــاءِ
حيـــث البطـــاحُ كـــأنّهنّ صـــحائفٌ رقمـــت بـــإبريز مـــن الأضـــواءِ
حيـــث الحـــدائقُ فتّحـــتْ أزهارهـــا عـــن وجنـــةِ المعشـــوقة العـــذراءِ
حيـــث الطّيـــورُ ترنّمـــت فـــي دوحهـــا فأتَـــتْ بمثـــل تـــرنّم الشّـــعراءِ
حيـــثُ النّســـيمُ إذا ســـرى مالـــت بـــه طربـــاً غصـــون البانـــة الميســـاءِ
حيـــثُ الجـــداولُ كالسّـــيوف إذا مضَـــتْ موصـــوفةً أبـــداً بحســـن صـــفاءِ
حيـــثُ التّـــرابُ كأنّـــه مـــن لؤلـــؤٍ متنـــاثرٍ أو فضّـــة بيضـــاءِ [2]

ونلحظ أنّ وصف القيسي لجمال بلاده (المكان الأليف) لم يكن وصفاً فوتوغرافيّاً ، بل عكس من خلال تصوير مفاتن بلاده ما يعتمل في داخله من حبٍّ عميقٍ ، وشوقٍ محرقٍ إلى مدينته بسطة ، مرتع الصّبا والشّباب ، وقد صاغ ذلك في تجربة شعريّة شعوريّة ، فحنين الشّاعر إلى رياض بسطة بكلّ ما فيها من كائنات حيّة وطبيعة صامتة وجمال ؛ جعلها تنبض بالحياة ، وتضجّ بالحيويّة والنّشاط . وهذا يوحي بشدّة تعلّق الشّاعر بوطنه وحنينه العارم إليه ، وهذا الحنين ليس إلى بسطة فحسب ، بل إلى ما تمتّع به من حياة حرّة كريمة في رياضها ؛ لذلك نجده يلجأ في التّعبير عن شوقه الدّفين لوطنه إلى التّكرار اللفظيّ حيث يُؤكّد على البيئة المكانيّة وما تحمله من دلالات وإيحاءات ترصد أغوار نفسه المعذّبة ، وتلهّفها لعالم النّور والحياة .

وهذا الشّعور لا يمكن أن يفرغه إلاّ من خلال التّكرار والصّور التي تؤكّد هيامه بوطنه ، إذ شبّه بطاح بسطة بصحائف رقمت بإبريز من الأضواء ، أمّا أزهار حدائقه فقد استقت ألوانها من خدّ العذراء المعشوقة ، كما أنّ غناء طيوره لا يختلف عن ترنّم الشّعراء ، ولون الأزهار هو الذي يشبه لون خدّ العذراء ، فالطّبيعة هي التي تأخذ محاسنها من مفاتن المرأة ؛ وهذه الأنسنة الطّاغية على الأبيات تشير إلى مدى تعلّق الشّاعر بكلّ شيء في وطنه ، إنسه وحيوانه وجماده .

إنّ الحنين إلى الدّيار مرتبط بالحنين إلى ساكني الدّيار ؛ إذ لا يحنّ الشّاعر إلى أراض تخلو من قاطنيها ، فالأرض وأهلوها ومراتع الصّبا ، إليهم جميعاً ترنو أنظار الشّاعر مخترقة ظلمة السّجون وقضبانها الحديديّة لتعانق الأهل والأحبّة فوق أرض الوطن ، تاركة العنان للعواطف الإنسانيّة أن تشبع نهمها من دفء الأحبّة .

إنّ الشّاعر السّجين يحرّر نفسه من سجنها ، متحرّراً من شعوره الزّمانيّ والمكانيّ ، محلّقاً في سماء الذّكريات ليستلقي فيحضن الأحبّة كطفل صغير يبكي حرمان الحبّ ، وبؤس السّجن ، وينفصل عن لحظته وحياته الحاضرة ، محاولاً الاتّصال بالماضي

[1] المرجع السّابق نفسه ، ص19 .

[2] الدّيوان ، ص98-99 ، القصيدة 35 .

بحثاً عن ملجأ له فيه ، عسى أن يخلق توازناً في ذاته يحرّره من قلق اللحظة ، وبؤس الواقع ؛ فلا يجد هذا ملجأ إلاّ في أحضان الآباء الدّافئة ، وفي ضمّ الأبناء ، ومعانقة الإخوة والأخلاّء ، فيقول ؛ من البسيط :

يـــا نـــاظر الطّـــرف بـــل يـــا قطعـــةَ الكبـــدِ ... وموضـــعَ الحـــبِّ فـــي قربـــي وفـــي بعـــدي
ومـــن هـــواه لـــدى القلـــب المَشُـــوق غـــدا ... فـــي كـــلّ آونـــةٍ كـــالرّوح فـــي جســـدي
وأنـــت يـــا والـــدي إنْ غبْـــتَ عـــن بصـــري ... فلـــم تَغِـــبْ لحظـــةً والله عـــن خلـــدي
إنّـــي لأذكـــرُكُم حتّـــى لأذكـــرُ مـــا ... نـــاديتموني بـــه مـــن لفـــظ يـــا ولـــدي
فـــأنطوي مـــن حنينـــي عنـــد ذكـــركُمُ ... وفـــرطُ شـــوقي إلـــى لُقيـــاكَ فـــوق يـــدي
وأحســـدُ الـــرّيحَ إنْ مـــرّت بأرضـــكُمُ ... وإنْ أتـــى الشّـــرعُ يبـــدي حرمـــةَ الحســـدِ [1]

إنّ هذه النّفثة الشّعريّة ممزوجة بدم الشّاعر ، وتدلُّ على حزنه وتفجّعه لفقد والده ، إنّه يبكي حنان وعطف أبيه الذي طالما أغدقَ عليه مشاعر الحبِّ ، وهو الآن يقاسي الحرمان في كلّ شيء ، يلوذ بصدر والده لعلّه يخفِّف وطأة الألم والحرمان الذي يجعله يحسد الرّيح التي تهبُّ عليه ، ويبدو أنّ القيسيّ شديد التّعلّق بوالده قبل سجنه؛ لذا يفتقده في أسره ، ويبكي غيابه بحرقة ، ولا يبرح يناجيه مع أحبّته ، ويبثّه حبّه مع نسمات الهواء ، يقول ؛ من الكامل ، من القصيدة التي مطلعها :

إنّـــي فضَضْـــتُ عـــن الـــدّموعِ خِتامـــا ... فغـــدَتْ تســـيلُ بـــوجنتيَّ غمامـــا...
يـــا ســـاكنين بســـطة دونـــي ولـــي ... قلـــبٌ بهـــم مـــا يســـتفيق غرامـــا
وإنّنـــي وإنْ كنـــتُ عـــنكُم نازحـــاً ... فالقلـــبُ فـــي تلـــك الـــدّيار أقامـــا...
وجلالِكـــم وجمـــالِكم وكمـــالِكُم ... قســـماً بـــذلك كلّـــه إعظامـــا...
وحـــلال نـــومي بـــالفراقِ جعلْتُـــه ... مـــن يـــومِ فـــرقتكم علـــيَّ حرامـــا
فـــالنّوم قـــد عـــادى الجفـــون ضـــرورةً ... فغـــدَتْ جفـــوني مـــا تـــذوق منامـــا
ونســـيمُكُم لـــو زارنـــي لوجدتُـــهُ ... بـــرداً علـــى نـــار الحشـــى وســـلاما
ولكنـــتُ أنشَـــقُ مـــن شـــذاه إذا ســـرى ... عرفـــاً يـــداوي بالحشـــى الآلامـــا...
لكنّنـــي متعلّـــق بـــدعائكم ... أرجـــو بـــهِ للنّائبـــاتِ تمامـــا
فتعـــود أيّـــامي كمـــا كانـــت بكـــم ... عُـــرراً تفـــوق بحســـنها الأيّامـــا [2]

يبثّ الشّاعر والده وزوجته كثيراً من الشّوق والحنين، ويخصّ هنا زوجته بعنايته ، ويبثّها أشواقه الملتهبة بهذه الأشعار العذبة. إنّ أهل الشّاعر وأحبّته يعيشون في قلبه ، ولا يفارقون مخيّلته ؛ لذا يطلب منهم السّعي لتخليصه من ربقة الاعتقال ، وما يعانيه من عذاب ، وطلبه هذا يسطّره في قوله " لكنّني متعلّق بدعائكم ... فتعود أيّامي .. " .

العشق للمكان :

ونجد في أشعار البسطيّ مقارنة دائمة بين زمنين ، وبين مكانين ، هذه الثّنائيّة الضِّدّيّة منشؤها المكان المفقود (الوطن) ، والمكان المعادي والمرفوض (السّجن) ، فالمكان يعني حياته بكلّ ما فيها من مجالس أنس وطرب ، وحبّ وصداقات ومغامرات ؛ لذلك نجده يحلّق في فضاء مكانه الحبيب، ويسبح في ذكرياته، منطلقاً – وهو في مكانه المقيّد – نحو الأماني والأحلام ، ويعبّر عن تشوّقه إلى الحرّيّة، والعودة إلى وطنه من خلال التّشوّق إلى صورة المحبوبة. ويتذكّر المكان بكلّ ما فيه ، يقول من القصيدة التي مطلعها ؛ من الطّويل :

[1] الدّيوان ، ص106 ، القصيدة 39 .

[2] الدّيوان ، ص101-102 ، القصيدة 37 .

أكتمـــاً ونـــارُ الحـــبّ للصَّـــبِّ فاضِـــحُ وعـــذلاً وعـــذري للعـــواذل واضـــحُ
وإن صـــدَّ عنّـــي بعـــد وصـــلٍ عهدتـــه فـــإنّي لمـــا أولاه أهـــل وصـــالحُ
حنينـــي لـــه فـــي كـــلّ وقـــتٍ مجـــدَّدٌ وشـــوقي علـــى مـــرّ الجديـــدين جـــانحُ
إذا شـــمْتُ برقـــاً فـــي ربـــوعٍ ألفتُهـــا فقلبـــيَ خفّـــاقٌ ودمعـــيَ ســـافحُ
وإنْ مـــالَ غصـــن الـــدَّوح ملْـــتُ تشـــوّقاً كـــأنّي مـــن خمـــرِ الصّـــبابةِ ناشـــحُ
كـــأنّ فـــؤادي كلّمـــا رمْـــتُ سُـــلوةً قضـــيبٌ تفادَيـــه الصّـــبا وتـــراوحُ
كـــأنّ جفـــوني وانســـكابَ دموعهـــا صـــهاريجُ مـــاءٍ والتّـــذكّر مـــاتِحُ
كـــأنّ ظـــلامَ الليـــلِ بعـــد عشـــائه ســـوادُ بحـــارِ الهجـــر والصَّـــبُّ ســـابحُ
كـــأنّ الثّريّـــا حـــين تســـري لمغـــربٍ أزاهيـــرُ روضٍ أو بنـــانٌ تصـــافِحُ
كـــأنّ ســـهيلاً والنّجـــومُ تحفُّـــه أميـــرٌ بعـــين العـــدل للنّـــاس طـــامِحُ
كـــأنّ السّـــهى مثلـــي وقـــد حكـــم الهـــوى علـــيَّ ووافتنـــي الخطـــوبُ الفـــوادحُ
كـــأنّ انـــبلاجَ الفجـــر فـــي أُفُـــقِ مشـــرقٍ تبسُّـــمُ زنجـــيّ إذا مـــا يمـــازِحُ [1]

إنّ عشق الشّاعر للمكان هنا معنيٌّ بعشق المحبوب ، فهو يسبح بذكرياته في أرجاء المكان الأليف الذي يذكّره بالمحبوب في الرّبوع التي ألفها، وفي الرّياض التي عشقها، فالشّاعر هنا ممتزجٌ مع الطّبيعة ، متماهٍ معها ، فكلّ جزء من المكان (الفضاء المفتوح) هو الشّاعر نفسه . ويفضي في بعض قصائده بمعاناته إلى محبوبته ، مصرّحاً بحبّه لها رغم مرارة الأسر ، يقول ؛ من البسيط :

يـــا راحـــةَ الـــرّوح فـــي أســـري وإطلاقـــي وسَـــلْوةَ الـــنّفسِ فـــي وَجْـــدِي وإملاقـــي
ومـــن تفـــوق إذا تبـــدو محاســـنُها بَـــدْرَ الدّجنَّـــة فـــي حســـنٍ وإشـــراقِ
ومـــن رَمَـــتْ كبـــدي عـــن قـــوس حاجبهـــا مـــن غيـــر قَصْـــدٍ بألحـــاظٍ وإحـــراقِ
إنّـــي وإن كنْـــتُ مأســـوراً حليـــف أســـى مقيّـــدَ الرّجـــل ذا فكـــرٍ وإطـــراقِ...
فمـــا هـــواك بغيـــرِ القلـــبِ مســـكنُه ومـــا ســـواك لـــه قلبـــي بمشـــتاقِ
ولـــم يـــزلْ بـــك قلبـــي هائمـــاً أبـــداً ولـــم يَحُـــلْ عنـــك عـــن عَهْـــدٍ وميثـــاقِ
والأَسْـــرُ إنْ كـــان يُســـلي ذا الهـــوى فأنـــا أســـري يهـــيّج أشـــجاني وأشـــواقي...
إذا ذكـــرت زمانـــاً كـــان يجمعنـــا بطيـــب عـــيشٍ وإرفـــادٍ وإرفـــاقِ
يفـــيض دمعـــي علـــى الخـــدّين منســـكباً حتّـــى أبُـــلَّ بـــه نحـــري وأطـــواقي...
وحـــقّ حســـنك يـــا ســـؤلي ويـــا أملـــي ويـــا حديقـــةَ ريحـــاني وأحبـــاقي
مـــا همْـــتُ بعـــدكِ فـــي هيفـــاءَ فاتنـــةٍ ولا اســـتطبْتُ شـــراباً مـــن يَـــدَيْ ســـاقِ [2]

إنّ تعذيب الأعداء له وإرهاقه بالأعمال الشّاقّة لم ينسه عشق محبوبته ، فقد منح حبّه نفحات من العشق العذريّ حيث يتفانى الشّاعر في حبّ عشيقته ، مبتعداً عن ملذّات المتعة ، ثمّ يعودُ بذاكرته إلى الماضي السّعيد ، ويتذكّر زماناً اجتمع فيه بمن يحبّ ، مقارناً إيّاه بأسرٍ مذلّ ، فلا يلبث أن يذرف الدّمع باكياً ، ثمّ يقسم للمحبوبة أنّه ما سلاها ، ولا هام بغيرها ، ولكنّنا نلمح في أبياته الأخيرة شيئاً من التّفاؤل ، وتعلّقه بالحياة الأندلسيّة بكلّ ما فيها من خلال ذكره للرّيحان والأحباق التي تشي بلون الفرح والسّعادة. ويقول في قصيدة أخرى، من الطّويل :

[1] الدّيوان ، ص140-141 ، القصيدة 54 .

[2] الدّيوان ، ص114-115 ، القصيدة 43 .

سـلُوا مـن بهـا أسـلو لِـمَ اختـارت الصّـدا ... ولـم تـرعَ لـي العَهْـدَ القـديمَ ولا الـودّا
لعـلّ لـديها إذ تجـاوبُ حُجَّـةً ... تبـرّد مـن قلبـي بهـا الشّـوقَ والوجـدا...
وقـد كنـتُ منهـا بـالتّقرّب آنسـاً ... فَصِـرْتُ فقيـدَ الأنـسِ مـذ رامـتِ البُعـدا...
أعـانق منهـا الغصـنَ يهتـزُّ ناعمـاً ... وألـثمُ منهـا الخـدَّ قـد أخجـل الـوردا
وأقطـفُ زهـرَ الـرّوضِ فـي وجناتهـا ... وألـثمُ مـن فيهـا المدامـة والشّـهدا
وقـد جعلـت إحـدى يـديَّ وسـادةً ... وصـيّرت الأخـرى علـى عجـلٍ عَقْـدا
ورجلـي عليهـا كاللحـاف لنـائمٍ ... وصـدري يحـاذي ذلـك الصّـدْر والنّهـدا [1]

يستهلّ قصيدته بالسّؤال عن الهجر ، ثمّ يفصّل في قصّته الغراميّة ؛ مقارناً من خلالها بين صورتين متناقضتين ، عزّ الماضي في (المكان الأليف) ، وذلّ الحاضر في (المكان المعادي) .

المكان الأليف المفتوح = عزّ الماضي

$\neq$

المكان المعادي المغلق = ذلّ الحاضر

وتتّسم قصيدته بالواقعيّة والصّراحة في التّعبير عن مشاعره المكبوتة التي دفعت به للنّهل من نبع الذّكريات ؛ ليُعيد إلى النّفس توازنها العاطفيّ عن طريق إثارة بعض الصّور الرّاسخة في ذهنه (أقطف ، ألثم ، أهصر ، أرشف) ، وقد يلجأ أحياناً إلى النّسخ من بنات الأفكار ؛ ليخلق نوعاً من التّواصل النّفسيّ بين واقعه المؤلم ، وماضيه ، مشبعاً عواطفه الحبيسة ، كقصّته مع النّصرانيّة ، فالحبيبة في ظلّ وطنه المفقود ، تمثّل المتعة والحياة الهانئة [2] .

وقد عشق البسطي بلده بكلّ ما فيها ، فوصف رياضها ، وأزهارها ، بل حمَامها[3] أيضاً ، يقول ؛ من السّريع :

بالدّمنـةِ الغـرّاء مـن بسـطةٍ ... أدواح أعنـابٍ تـروق العيـون
تلوّنـت فيهـا عناقيـدُها ... وأظهـرَت للحسـنِ شـتّى الفنـون
قـالوا هـي الشّـهد لـدى ذوقهـا ... طيبـاً ، فقلـت : الشَّـهد ، واللهِ ، دُون
وتينهـا الأيّـوبيّ فـي طيبِـهِ ... وحسـنِهِ لـيس يسـاويه تـين
وعاصـمِيها الفـذّ فـي لونِـهِ ... وطيبـه لـيس لـه مـن قـرين
وخَوخُهـا يشـبه مُحْمَـرُّه ... خـدود حـور فُقْـن فـي الحُسْـنِ عـين
وكـالنّهود المُـدْمجات اغتـدى ... اسـفرْجَلٌ يحملُـهُ كـلَّ حـين
ومثلُهـا فـي الشّـكل رُمَّانهـا ... كمثـل إجـاصٍ بهـا مُسـتبين[4]

تـداخلت الصّـور البصـريّة والذّوقيّـة فـي نـصِّ البـاثّ ، كمـا أظهـر الـنّصّ إيحـاءً شـهوانيّاً يعـود للمـرأة (اسفرجل ، رمّان) ، كذلك نجد في الحيثيّة المكانيّة مؤكّدة في النّصّ ، عندما قدّم (فيها) على الملكيّة (له) في البيت العاشر ، وتكراره للفظة (بسطة) في البيت الأوّل ، والعاشر .

النّفور من المكان :

[1] الدّيوان ، ص43-44 ، القصيدة 6 .

[2] يُنظر : الدّيوان ، ص36-39 ، القصيدة 4 .

[3] يُنظر في وصف الحمام ، الدّيوان ، ص458 ، القصيدة 305 .

[4] الدّيوان ، ص182-183 ، القصيدة 82 .

المكان كما يكون محبوباً لدى الشّعراء ، فقد يكون مكروهاً تنفر منه النّفوس ، ولهذا نرى بعض الشّعراء يقفن منه موقفاً معادياً ؛ إذ يرفضونه ويرفضون البقاء فيه ، إمّا لأنّه مكان مغلق تكاد تنعدم فيه الحياة الكريمة كالسّجن ، وإمّا لأنّهم لم يجدوا الاستقرار والرّاحة والأمان بين جنباته [1] .

الاغتراب بحسب التّحليل السّايكولوجي والفلسفيّ هو شهور يلازم النّفس الإنسانيّة مقتضاه الشّعور بالبعد والوحشة والانفراد ، وهو يولّد تفسيراً للحياة ، يمضي إلى اليأس ونشدان حياة جديدة يصوّرها الوهم أو الخيال أو الأمل أو الحلم – أيّاً كان – لكن هذه لحياة تحكيها الكلمات بأبيات رائعة ملاكها البحث عن مقوّمات جديدة للعيش في دنيا أخرى غير التي يعيشها الشّاعر في واقعه المؤلم، فالاغتراب النّفسيّ مولّده الاغتراب الاجتماعيّ[2]؛ لأنّ الفرد جزء لا يتجزّأ من مجتمع يحويه ، وله مع هذا المجتمع شبكة من العلاقات لا يمكن التّكهّن بمصيرها وإدراكها بسهولة ، ونلحظ شعور البسطيّ بالاغتراب طاغياً في عدّة قصائد من شعره ، يحلم بحياة جديدة خالية من الظّلم والقهر ، يقول ؛ من الطّويل :

خليليَّ ما مثلي يقيمُ ذليلا ... ويحمل من ضيم الزّمان ثقيلا
ويرضى بعيشٍ لا يزال ببسطة ... يجدّد من حطب الهموم جليلا
فلا تعذلاني في رحيلي عنكما ... فإنّي لما ألقى عزمْتُ رحيلا
فقد سئمَتْ نفسي المقام ببلدةٍ ... تغيّر فيها من تخذْتُ خليلا
وأبدى عبوسَ الوجه من بعدِ بشره ... وصيّر لي الودّ الصّحيح عليلا
ودان بمنع الحقّ والحقُّ واجبٌ ... وردّ حُسامَ العزّ منه فليلا...
فإنّ من العجز الثّواء بموطنٍ ... يكون به الظّلم الذّميم نزيلا...
لعلّ الذي ألقاه يذهب جملةً ... وأبْصِرُ وجهاً للسّرور جميلا
بلقيا رجالٍ في مواطن طالما ... بَنَتْ وبنُوا فخرَ الرّجال أثيلا
وألفى لديهم من أتاهم بأرضهم ... من الفضل حظّاً في النّفوس جزيلا
وظلاً ظليلاً في رضا تنعّمٍ ... يطيبُ ومثوى للفتى ومقيلا
وسَعْداً بما يهوى الفؤاد مساعداً ... وأُنساً وصولاً بكرةً وأصيلا
هنالك ما بي من خطوب عظيمةٍ ... يخفُّ عن القلب القريح قليلا
وألقى زماناً ضاحك السّنّ باسماً ... وأتركه قصداً بذاك قتيلا [3]

ومرّة أخرى يجد في الرّحيل عن (بسطة) الملاذ والملجأ ، فيقول ؛ من الطّويل :

عُزِلْتُ فجدّت في العتاب لكونها ... رأت مدّة التّقديم نوعاً من الهزلِ
فقلتُ لها إنّ الولايةَ ربُّها ... يُؤخّر عنها بالممات أو العزلِ
فقالت : نعم لكن ولاية بسطةٍ ... أبى حمْلَها ذو العقل والنّظر الجَزْلِ
فقلْتُ ولا يرضى المقام بها امرؤٌ ... وفي الأرض ما فيها من الضُّمَر البُزلِ
فسرْ في بلاد اللهِ عزّكَ تلتمسْ ... وتخلِفْ بها هندُ تعيش من الغزلِ
فبالنّقل عن دار الفناء ذووا التّقى ... لدارِ البقاءِ استوجبوا شَرَفَ النّزلِ
فبيْتٌ كبيتِ الشّعر عوقب جُزْؤه ... فما اختلَّ إنشاداً وعومل بالخزلِ

[1] يُنظر : المكان في الشّعر الأندلسيّ – عصر ملوك الطّوائف ، ص42–43 .
[2] تمظهرات النّصّ الشّعريّ الحديث ، ص17 .
[3] الدّيوان ، ص127–128 ، القصيدة 49 .

ولا كـــالتي مـــا برحـــت قـــد تزوّجـــت فألفَـــتْ طبـــاعَ الـــزّوج مالـــتْ إلـــى العَـــزْلِ [1]

بأسلوب قصصيّ شائقٍ سوّغ البسطيّ رحيله عن مدينته التي يحبّ (بسطة) ، فكيف يبقى في بلدة يناله فيها الضّيم والذّلّ ، وفي الأرض متّسعٌ لكلّ طالب عزّ وكرامة ، وفيها كذلك مقوّمات الرّحيل كلّها . إذا كان هذا شعور البسطيّ العاشق لمدينته بسطة ، فكيف به وهو في ضيق السّجن ، فوصفه بأوصاف مخيفة ومرعبة ، ووصف معاناته الجسديّة والنّفسيّة ، وقد مرّ ذكر ذلك سابقاً [2] .

الرّثاء للمكان :

المكان وإن كان جامداً بلا روح ، فهو عند الشّعراء كائن حيٌّ كالإنسان ، فإذا ما فُقد رثاه الشّاعر ، وأظهر التّحسّر والتّفجّع والبكاء على فقدانه ، ممّا يُؤكّد قوّة وعمق الصّلة الحميميّة بين الشّاعر والمكان [3] ، والشّاعر الأندلسيّ متعلّق ببيئته تعلّقاً شديداً ، وكان هذا التّعلّق مصحوباً بالخوف من فقدان فردوسهم الأرضيّ .

والشّاعر البسطيّ عاش في عصر انهيار الدّولة النّصريّة ؛ لذلك جاء شعره مطبوعاً بطابع الغيرة على الدّين والوطن ، والكراهية لأعداء الإسلام الذين اكتوى بنار الأسر وقيوده عندهم ، فقد كان كلّما سقط ثغرٌ من الثّغور رثاه وبكاه بالدّم لا بالدّمع ، ورفع صوته عالياً بالتّقريع والتّوبيخ لأولئك الذين فرّطوا في البلد ، وتهاونوا في الدّفاع عنه ، وتسبّبوا في ضياعه بسلوكهم سبيل الخلاف [4] ، ولم يكتفِ بذلك ، بل نجده يقول الشّعر لحثّ النّاس على الجهاد . وممّا قاله مقرّعاً وموبّخاً عند استيلاء العدوّ على حصن اللّقون من حصون وادي آش ، من البسيط :

يـــا أهـــل وادي الأش لا درّ درُّكُـــمُ ولا بـــرحْتُم لقًّـــى للكـــرْبِ والكَمَـــدِ
ضـــيَّعتُمُ سَـــفَهاً حِصْـــنَ اللّقـــونِ ولـــمْ تُراقبـــوا فيـــه حـــقَّ الواحـــد الصَّـــمَدِ
حتّـــى احتـــواه العِـــدا غـــدْراً وصـــار لهَـــم لغـــزوكمْ عمـــدةً مـــن أفضـــلِ العُمَـــدِ
فاستشـــعروا إذ أضـــعْتُمْ فيـــه حـــزمَكُمُ والجـــدَّ قـــرْبَ انقضـــاء الوقـــتِ والأمـــدِ [5]

نجد الشّاعر يحمّل أهل وادي آش مسؤوليّة سقوط هذا الحصن ، ويقول : إنّ استيلاء العدوّ عليه كان نتيجة التّفريط والتّهاون من جهة ، والغدر والخداع من جهة أخرى [6] .

استشعر البسطيّ بالخطب النّازل بالمسلمين يومئذٍ ؛ إذ كان فقد هذا الحصن مؤذناً بقرب انقضاء الوقت والأمد كما ذكر . وبعد الأبيات السّابقة مباشرة نجده يقول في سقوط جبل الفتح أو جبل طارق ؛ من الطّويل :

أُواري أُوار القلـــب مـــع شـــدّةِ اللّفـــحِ فتبديـــه عَـــيْنٌ دمعُهـــا دائـــمُ السَّـــفحِ
وأُخفـــي الـــذي ألقـــى مـــن الحـــزن والأســـى وظـــاهر حـــالي –الـــدَّهر– يُـــؤذنُ بالصَّـــفحِ
وأُبـــدي مـــن التّقطيـــبِ للفـــتح حالـــةً تســـوءُ صـــديقي فـــي مســـاءٍ وفـــي صُـــبْحِ
وقائلـــةٍ : مـــا لـــي أراكَ مقطبَـــاً كأنّـــك للتّقطيـــبِ هـــدّدت بالـــذّبحِ
وعهـــدي –ولا أخفـــي صـــفات عرفتهـــا– تســـرُّ بمـــا تبـــدي مـــن البشـــر والسّـــمحِ
فقلـــت: دعينـــي الحـــزنُ فـــرضٌ علـــى الـــورى أمـــا قـــد حـــوى أعـــداؤنا جبـــل الفـــتحِ
حـــرامٌ علينـــا البِشْـــرُ والسَّـــحُ بعـــده وفـــي القلـــب مـــن آلامِـــه أعظـــم الجُـــرْحِ
عســـى مـــن قضـــى فيـــه بأخـــذٍ يُعيـــدُه ويُـــذهبُ مـــا أشـــكوه مـــن شـــدّة القَـــرْحِ

---

[1] الدّيوان ، ص472 ، القصيدة 317 .

[2] يُنظر : ص 8و9و10 من هذا البحث .

[3] يُنظر : المكان في الشّعر الأندلسيّ – عصر ملوك الطّوائف ، ص48 .

[4] يُنظر : شريفة ، د. محمّد ، البسطيّ آخر شعراء الأندلس ، دار الغرب الإسلاميّ ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1985 م ، ص165–166 .

[5] الدّيوان ، ص347 ، القصيدة 220 .

[6] البسطي آخر شعراء الأندلس ، ص168 .

فمنـــــه تعـــــالى نرتجـــــي الخيـــــر كلّـــــه ومـــــا زال أهـــل الفضـــل والمـــنّ والمَـــنْحِ[1]

إنّ حسرة الشّاعر بالغة ، وحزنه شديد ، ومن يقرأ أبيات الشّاعر يظنّ أنّه يبكي مصيبة خاصّة به وليست عامّة بالمسلمين ، وهو يرى أنّ الحزن يجب أن يكون فرضاً على جميع النّاس بعد سقوط الفتح ؛ وذلك لأنّ هذا الجبل كان يمثّل صلة الوصل مع أهل المغرب الذين اعتادوا أن يهبّوا لنجدة إخوانهم[2] ، فلا غرو أن نجد الشّاعر يبكيه بكاءً مرّاً ، وكان يمتح من معجمه الحزين ليشير إلى هول الفاجعة ، ولكنّنا نلمح – مع ذلك – شيئاً من التّفاؤل والأمل في ألفاظ الشّاعر من خلال تكرار لفظتي (البشر والسّمح) بهذا الأسلوب السّرديّ الحواريّ صوّر لنا الشّاعر عظم الكارثة ، ولشدّة تعلّق الشّاعر بوطنه نجده يرثي المكان والمنافحين عنه الذين استشهدوا في سبيله ، ومن ذلك قصيدته في شهداء كائنة لورقة ، يقول ؛ من الكامل :

لمصـــــاب أنـــــدلس تصـــــوب الأدمـــــعُ ولمـــــا جـــــرى فيهـــــا تـــــذوبُ الأضـــــلعُ

فلهـــــا مـــــع الأعـــــداءِ حـــــالٌ تفـــــزعُ تقضـــــي بحســـــرة مـــــن يـــــرى أو يســـــمعُ

وتكـــــــــادُ مُهْجتُـــــــــه لـــــــــه تتصـــــــــدَّع...

فلقـــــد أحـــــال عـــــدوُّها أحوالَهـــــا حـــــين الخطـــــوبِ أذاقهـــــا أهوالهـــــا

وأفـــــاضَ فـــــي أقطارهـــــا إذلالَهـــــا لمّـــــا أبـــــادَ بلُـــــورقٍ أبطالَهـــــا

يـــــومَ العروبـــــةِ كـــــان فيـــــه المصـــــرعُ [3]

2-2 : الدّلالات الاجتماعيّة :

إنّ لحضور المكان واستدعائه في الشّعر الأندلسيّ دلالات أخرى غير الدّلالات النّفسيّة ، فإنّه يستحضر المكان ليرمز به إلى بعض القيم الاجتماعيّة ، فالمكان قد يدلّ على قيم إيجابيّة أو قيم سلبيّة بحسب مفهوم السّياق الشّعريّ، واستخدام الشّاعر له؛ إذ يرتبط الشّاعر بالمكان الذي يعيش فيه بعلاقة إيجابيّة أو سلبيّة ، فقد يمدح الشّاعر المكان لحسن أخلاق أهله أو ممدوحه ، فالمكان هنا مرآة عاكسة تعكس أوضاع المجتمع والأفراد الذين يتعامل معهم الشّاعر ، يقول البسطيّ مهنّئاً القاضي أبا عمرو بن منظور بقضاء الجماعة ؛ من المتقارب :

بـــــأيمن وقـــــتٍ وأســـــعد ســـــاعَهْ وُلِيـــــتم فـــــزنتم قضـــــاء الجماعـــــهْ

ولُحْـــــتُم بغرناطـــــةٍ بـــــدْرَ ســـــعد جـــــلا العـــــدْلَ فيهـــــا وأبـــــدى شُـــــعَاعَهْ

فأضـــــحَتْ تَـــــروقُ العيـــــون جمـــــالاً بـــــذاك الكمـــــالِ وتلـــــك البراعَـــــهْ

وأرجاؤهـــــا استمســـــكت مـــــنكُمُ بحبـــــلِ عُلـــــى لا تخـــــاف انقطاعـــــهْ [4]

فغرناطة استبشرت بقدوم الممدوح ، واطمأنّت بعد أن فارقها الجور والظّلم ، وقال مادحاً له أيضاً ؛ من الكامل :

مـــــا للرّيـــــاض أنيقـــــةَ الأثـــــوابِ مأنوســـــةَ الأرجـــــاءِ والأبـــــوابِ

دارت بهـــــا للأنـــــسِ أيَّ مَـــــدَارَةٍ مـــــن غيـــــرِ أقـــــداحٍ ولا أكـــــوابِ

والزّهـــــرُ فـــــي أدوامهـــــا متبسّـــــمٌ عـــــن ثغـــــرٍ ســـــاحرةِ العيـــــونِ كَعَـــــابِ

والطّيْـــــرُ فـــــي أغصـــــانها نغماتُـــــهُ مـــــن طيبهـــــا تُســـــبي أُولـــــي الألبـــــابِ

والـــــرّيحُ تَـــــنْفَحُ والخمائـــــل تنثنـــــي طربـــــاً بجانـــــب زهرهـــــا المنســـــابِ

والطّيـــــبُ يعبـــــقُ ريحُـــــه فـــــإذا ســـــرى وافـــــى بطيـــــبِ نواســـــمِ الأحبـــــابِ

---

[1] الدّيوان ، ص348 ، القصيدة 221 .

[2] البسطي آخر شعراء الأندلس ، ص169-170 .

[3] الدّيوان ، ص178 ، القصيدة 80 . يوم العروبة : يوم الجمعة .

[4] الدّيوان ، ص169 ، القصيدة 73 .

ومشـــــاربُ الـــــدّنيا المؤمَّـــــل وِرْدُهـــــا خَلُصَـــــتْ مـــــن الأَكْـــــدارِ للطّـــــلاَبِ
مـــــا ذاك إلاّ للسّـــــرورِ بنَعمـــــةٍ مـــــن مُـــــنْعم مُتفضِّـــــلٍ وقّـــــابِ
بولايـــــة القاضـــــي ابـــــن منظـــــور أبـــــي عَمْـــــروٍ رئاســـــةَ جملـــــة الكتّـــــابِ [1]

إنّ الرّياض مستبشرةٌ فرحةٌ بولاية القاضي ابن منظور ، وقد بثّ الشّاعر فيها الحياة والحركة ، هذه الدّيناميكيّة في صوره جعلت الرّوضة الغنّاء في أبهى صورها، إنّ هذا التّضمين الذي استخدمه الشّاعر خلق لنا مشهداً متكاملاً نابضاً بالحياة التي يحلم بها، المكان الحلمي المُتخيَّل في ذاكرة الشّاعر ، وقد استمدّ هذا المكان جماله من جمال أخلاق ممدوحه . وفي قصيدة أخرى للبسطيّ ، يمدح مالقة ، ويذكر محاسنها ، وقد نظمها ردّاً على كتاب وصل للمريّة مستفتحاً بقصيدة طويلة في الرّوي والعروض ؛ من الطّويل ، ومطلعها :

أفـــــيكم علـــــى وجـــــدي معـــــينٌ ومُنْجِـــــدُ فوجـــــدي بكـــــم دَهْـــــري مُغيـــــرٌ ومنجـــــد [2]

وفيها يخاطب أحبابه من أهل مالقة :

أأحبابُنـــــا مـــــن أهـــــل مالقَـــــةُ التـــــي محاســـــنُها شـــــتّى إذا مـــــا تُعـــــدَّدُ

ويُعبّر فيها عن أمله في زيادتها والسّكنى فيها :

فإنّـــــا لنرجـــــو عنـــــدكم جمـــــع شـــــملنا ببلـــــدتكم فهـــــو الشّـــــتيت المُبـــــرَّدُ
ونقصـــــد منهـــــا بالزّيـــــارة حضـــــرةً بزَوْرَتِهـــــا حَـــــرَّ الضّـــــلوعِ تُبـــــرِّدُ

ثمّ يبدأ بتعداد مآثر آهلها ، ومحاسنها ، ومصانعها ، وقصورها ، وحرثها الذي هو جنَّةُ الدُّنيا ومسجدها الجامع الذي ما مثله مسجد ، وصلحائها وعلمائها ؛ وعلى رأسهم أبو عمرو ابن منظور قاضي البلد وإمامه وخطيبه ، كما يصف دار الصّنعة التي اشتهرت بها ، ويمدح ساحلها ومتنزّهاتها وطيب هوائها الذي ينفي الكسل والتّبلّد ، ويشيد بفرسانها وحماتها ، ويصف قلعتيها وميناءها ، والفلك الذّاهبة ، ويختم بذكر تجّارها الأجواد ، ويمدح منهم صديقاً له اسم عبد العزيز [3] ، فهو لم يترك تفصيلاً من تفصيلات المكان المفتوح الذي وجد فيه الحلم بحياة حرّة كريمة ، والهروب من المكان المغلق إلاّ وتغنّى به ، حتّى ولدانها ونسائها ، يقول :

مدينـــــةُ أعـــــلامٍ كبـــــارٍ أفاضـــــلٍ بآثـــــارِهِمْ كُتْـــــبُ التّـــــواريخ تَشْـــــهَدُ...[4]

إنّ الشّاعر لم يدع تفصيلاً في المكان (الحلم المفتوح) إلاّ وذكره وتغنّى به ؛ لأنّ الشّاعر لم يجد ما يصبو إليه في بلده (بسطة) ، وتعرّض لاهتضام حقّه من أهل بلده ، ممّا جعله يرنو بنظره إلى غيرها ؛ ليجد الأمن والأمان ، وليمدح صديقه فيها :

المكان المغلق (بسطة) ≠ المكان المفتوح (مالقة)

فقدان الأمن والأمان ≠ الإحساس بالأمن والأمان

الحزن ≠ الفرح

فالمكان المغلق (بسطة) يقابله المكان المفتوح (مالقة) المكان الحلمي الذي يتمنّاه الشّاعر .

ونلحظ في وصفه لمالقة انعكاس الذّوق الأندلسيّ من خلال ذكره لألفاظ الطّبيعة وألفاظ الزّينة ، وبثّ الحياة في أوصال صوره ؛ الأمر الذي يشير إلى مدى تعلّقه بالبيئة الأندلسيّة والحياة الأندلسيّة .

وكما وظّف الشّعراء الأمكنة ليعطوا دلالات إيجابيّة لمن حولهم ، نجدهم يوظّفون الأمكنة – كذلك – ليعطوا إشارة لبعض القيم السّلبيّة والمعادية ، فيغدو المكان الأليف / المفتوح نفسه مكاناً مغلقاً عاديّاً . والبسطيّ قام بنظم أشعار كثيرة انتقد بها سوء الأحوال ببلده بسطة والأندلس عامّة ، وذمّ الأمكنة التي ناله فيها الذّلّ والهوان واهتضام الحقوق ، ومن ذلك قوله ؛ من الخفيف :

---

[1] الدّيوان ، ص255 ، القصيدة 150 .

[2] الدّيوان ، ص368–389 ، القصيدة 253 . ويُنظر في ذلك : ص394 ، القصيدة 256 ، وص400 ، القصيدة 259 .

[3] البسطي آخر شعراء الأندلس ، ص139 .

[4] يُنظر : الدّيوان، ص386–389 ، وذلك لطول القصيدة.

لا رعـــــــى الله بســـــــطةً وأناســـــــاً بحماهـــــا أضـــــحوا مـــــن السّـــــكّان
فلقـــــد أكرمـــــوا اللئـــــام افتخـــــاراً وأهـــــانوا القـــــرّاء للقـــــرآن
لـــم يكـــن ذا فـــي وقتنـــا بـــل عليـــه لـــم يزالـــوا فـــي ســـالف الأزمـــان [1]

فالفسادُ مُتأصّلٌ بهم ، وليس في زمن الشّاعر فحسب . وممّا قاله أيضاً ؛ من الكامل :

الكلـــــــبُ صـــــــار ببســـــــطةٍ أعلـــــى وأشـــــرف مـــــن فقيـــــه
أنّـــــــى فقيـــــــه يعتلـــــــي لمحلّـــــــه أو يرتقيـــــــه
الكلـــــــبُ مالكُـــــــه بهـــــــا مـــــن كـــــلّ مـــــا يخشـــــى يقيـــــه
وفقيههـــــا مـــــن أهلهـــــا مـــــا ســـــاء مـــــنهم يتّقيـــــه
فنـــــراه عنـــــد خروجـــــه يَرْتـــــاعُ ممَّـــــنْ يلتقيـــــه
أفعاقـــــلٌ يرضـــــى بهـــــا وطنـــــاً لســـــكنى ينتقيـــــه ؟ [2]

وما ذمّ الشّاعر للمكان إلاّ لأنّه لم يجد فيه ما يرضي طموحه ، ورأى الأراذل من قومه يصلون إلى أعلى المراتب ، على حين يرى فقهاءها أذلّة ، فكيف يرضى عاقل بالعيش بها . وقد يصبح المكان مصدر خطرٍ وتهديد على ساكنه ، وللبسطيّ مقطوعة جميلة قالها عندما " أرجف إثر أخذ جبل الفتح واللّقون أنّ العدوَّ دمَّرَه الله غدر ثغر بلس " من الخفيف :

جبـــل الفـــتح بيـــع بـــالغرب بخســـاً وتـــلاه بـــالبيعِ فـــي الشّـــرق بلِّـــسْ
واللّقـــون اســـتبيح بـــالجوف غـــدراً حـــين فيـــه بواجـــب الحِفـــظ دُلِّـــسْ
فـــأميرُ الجزيـــرةِ اليـــوم عنهـــا فـــي الجهـــاتِ الـــثّلاثِ والله مُمْلِـــسْ
يـــا مريـــدَ الجلـــوسِ فيهـــا اختيـــاراً ارتحـــلْ عنهـــا والـــتمسْ أيـــن تجلـــسْ [3]

ويعدّ ما ذكره البسطيّ من أقوى ما يقرأ في شعر النّقد السّياسيّ ، ومن أشدّه لهجةً ، فهو يسخر من أمير الأندلس المتهاون في الدّفاع عن البلاد ، ويذكر أنّ الحصون المذكورة أعلاه قد وقع بيعها والتّخلّي عنها للعدوّ .

3-2 : دلالات متنوّعة:

لحضور المكان في الشّعر الأندلسيّ دلالات متعدّدة أخرى غير ما ذكرنا ، وهذه الدّلالات تكشف لنا عن إحساس الشّاعر الأندلسيّ بالمكان الذي يفرض عليه موضوع انفعاله ، وتكشف عن مدى تعلّقه بالمكان واحتفائه به، وسنكتفي هنا بما يحمله المكان من دلالة دينيّة فقط ، يقول بعد أن وصل سنّ الأربعين؛ من الوافر:

مـــــرور الأربعـــــين أطـــــار نـــــومي وأجـــرى فـــوق صـــفح الخـــدِّ دمعـــي
وعِلْمـــــي بالرَّحيـــــل غـــــداً وتَركـــــي مـــن أهلـــي مـــن غـــدا بصـــري وسَـــمْعي
ومـــــا يشـــــفي الـــــذي أشـــــكوه إلاّ مبيتـــــي محرّمـــــاً أدعـــــو بجمـــــعِ [4]

بعد أن وصل الشّاعر إلى سنّ الأربعين ، وأدرك أنّه اقترب من النّهاية ، وأنّ شمسه أوشكت على المغيب ، أيقن أنّ لا شفاء لمخاوفه تلك إلاّ بالذّهاب مُحْرماً إلى بلاد الله ، إلى الحرم المكيّ الشّريف ، واستحضاره للمكان هنا يوحي بتديّنه وإيمانه العميق .

وممّا سبق يظهر أنّ للمكان عند الشّاعر البسطيّ حظوة واهتماماً واضحين ؛ فاستدعاه في كثير من شعره ليوظّفه في عدد من أغراضه ومراميه ، فكانت له دلالات ورموز متعدّدة ، كما كان له أثره الواضح في شعره .

---

[1] الدّيوان ، ص312 ، القصيدة 188 .
[2] الدّيوان ، ص313 ، القصيدة 189 .
[3] الدّيوان ، ص415 ، القصيدة 271 .
[4] الدّيوان ، ص411 ، القصيدة 267 .

الخاتمة :

إنّ علاقة الإنسان عموماً بالمكان ، ومدى ارتباطه الوثيق به منذ ظهوره على هذه الأرض ، وقد هيّأ الله له الكون والأرض ليحقّق وجوده وانتماءه في ظلّ أمكنته ومتطلّباته الحياتيّة التي تشعره بالحرّيّة والكرامة ، ومن هذا المنطق رأى الإنسان أنّ الأمكنة ليست جميعها ممّا يمكن أن يتوافر فيها الرّاحة والاستقرار ، فكما أنّ هناك أمكنة تتوق النّفوس إلى سكناها (الأمكنة الأليفة – الأمكنة المفتوحة) فإنّ هناك أمكنة مقابلة تنبذها النّفوس ، وتنفر منها (الأمكنة المعادية – الأمكنة المغلقة) ، وكلا النّوعين وجدا اهتماماً عند شاعرنا القيسيّ ، وحمّلها بعداً نفسيّاً أو سياسيّاً أو دينيّاً ، وهذه الأبعاد تُؤكّد مدى فاعليّة المكان في النّصّ الشّعريّ عند القيسيّ ، فوظّفه في نصوصه الشّعريّة وفق معطيات خارجيّة أو داخليّة .

الدّلالات النّفسيّة : كان الشّاعر يستحضر المكان في بعض نصوصه بدافع نفسيّ ، فالمكان يتشكّل في نصوصه من خلال عواطفه ومشاعره وانفعالاته النّفسيّة ، لذلك انقسمت هذه الدّلالات إلى أربعة أقسام بحسب موقف الشّاعر من المكان ، فالبسطيّ في موقف الحنين إلى المكان الأليف – المفتوح الذي أُبعد عنه قسراً ، واجتمعت عليه قسوة المكان غير الأليف المغلق مع قسوة الحنين إلى الأرض والوطن ، فصوّر لنا ذلك ، وأسمعنا آهاته وبكاءه ، مقارناً بين المكانين ، مستخدماً الثّنائيّات الضّدّيّة ، المكان المغلق المعادي ≠ المكان الأليف المفتوح ، ومقارناً كذلك بين زمانين ، زمن الحنين والألم والحسرة ≠ وزمن الفرح والسّرور ، وكان يمتح في كلّ ذلك من معجمه النّفسيّ ، فجاءت ألفاظه معبّرة عن حالته النّفسيّة .

وفي موقف العشق للمكان لاحظنا علاقة الشّاعر بالمكان – في الغالب – كانت مرتبطة بوجود الأهل والخلاّن ، والحبيبة ، فقد عشق المكان كما عشق ساكني المكان ، فأصبح المكان معادلاً موضوعيّاً لساكنيه من أهل وخلاّن وأحبّة .

أمّا في الدّلالات الاجتماعيّة، فقد انطلق الشّاعر من المكان؛ ليعطي إشارات لبعض القيم الاجتماعيّة ، فقد مدح المكان لصفات ممدوحه وأهله ، وذمّ المكان حتّى المكان الأليف – المفتوح ؛ لصفات أهله أيضاً .

وقد يغدو المكان الأليف المفتوح مكاناً معادياً مغلقاً ، فيرحل عنه البسطيّ إذا انتهكت كرامته أو ناله فيه الأذى .

كانت صور البسطيّ عند حديثه عن المكان صوراً حيّة ناطقة ، استطاع من خلالها إيصال رؤيته الشّعريّة حول المكان إلى المُتلقّي ، مفصحاً عن نوازعه النّفسيّة والاجتماعيّة المتعلّقة بالمكان ، مبتعداً عن الغموض والإبهام .

تنوّعت لغة الشّاعر في نصوصه التي تحدّث فيها عن المكان، بحسب موقفه منه ، فكانت لغة الحنين، ولغة الذّكريات ، عندما كان بعيداً عن وطنه، معبّراً عن أمانيه في العودة إلى حضن المكان الأليف – المفتوح، ولغة الرّثاء عندما يفقد جزءاً من وطنه ، فكثرت المفردات الدّالّة على البكاء ، وكلّ ما ينتمي إلى حقل الرّثاء .

ولغة الجمال التي رسم فيها لوحاته الفنّيّة بألوان مشرقة تكشف عن جماليّات المكان عبر لغة منتقاة تشعّ بهاءً وحسناً ، لغة التّرف والزّينة التي عشقها الشّاعر كمعظم الأندلسيّين .

ولغة الحبّ التي استطاع من خلالها التّعبير بلغة شفّافة عن مشاعره وأشواقه ، فلغة الشّاعر مستقاة من معجمه النّفسيّ – كما رأينا – ، تتلوّن بحسب انفعالاته ونوازعه النّفسيّة .

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1- البسطي، عبد الكريم القيسيّ، ديوان عبد الكريم القيسيّ البسطيّ، تح: د. شيخة، جمعة، ود. الطّرابلسيّ ، عبد الهادي ، تونس ، المؤسّسة الوطنيّة للتّرجمة والتّحقيق والدّراسات ، بيت الحكمة ، 1988 م .

2- الحبّوري، د. جمعة حسين يوسف، المضامين التّراثيّة في الشّعر الأندلسيّ في عهد المرابطين والموحّدين ، ط1 ، دار صفاء ، عمّان ، مؤسّسة دار الصّادق الثّقافيّة ، ط1 ، 2012 م .

3- الحميري، د. عبد الواسع، الذّات الشّاعرة في شعر الحداثة العربيّة ، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر ، ط1 ، 1999 م .

4- السّامرّائي، د. إبراهيم، البنية اللّغويّة في الشّعر العربيّ المعاصر ، دار الشّروق للنّشر والتّوزيع ، عمّان ، ط1 ، 2002 م .

5- شريفة ، د. محمّد ، البسطيّ آخر شعراء الأندلس ، دار الغرب الإسلاميّ ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1985 م .

6- صليبا، جميل، المعجم الفلسفيّ (عربي، فرنسي، إنجليزي، لاتيني) ، دار الكتاب اللبناني ، 1982 م .

7- العبيدي ، حسن مجيد ، نظريّة المكان في فلسفة ابن سينا ، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة ، بغداد ، ط1 ، 1987 م .

8- غاستون، باشلار، جماليّات المكان، تر: غالب هلسا ، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، لبنان، ط5 ، 2000 م .

9- لوتمان ، يوري ، مشكلة المكان الفنّي ، تر: سيزا قاسم .

10- ابن منظور ، جمال الدّين بن محمّد بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت – لبنان.

الكتب الالكترونيّة :

1- سعيد ، طلال زينل ، تمظهرات النّصّ الشّعريّ الحديث: التّشكيل ، الفضاء ، الرّؤية ، 2017 م ، http://books.googel.com.about .

المخطوطات :

1- الأعمري ، ياسر فاضل صالح عبد الكريم ، جماليّات المكان وبناؤه في الشّعر العربيّ الحديث في اليمن (1940-2000) ، رسالة ماجستير، جامعة عدن، اليمن ، 2009 م .

2- برقرق ، ريمة ، شعريّة الفضاء المغلق – حاضرة إشبيلية – السّجن أنموذجاً ، رسالة ماجستير ، الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة ، جامعة الحاج لخضر – باتنة ، 2009 م .

3- ابن بغداد ، أحمد ، شعريّة المكان في الشّعر الجاهليّ – المعلّقات العشر أنموذجاً ، رسالة دكتوراه ، جامعة جيلالي ليابس ، سيدي بلعباس ، 2015-2016 م .

4- بوداب ، نور الإيمان ، المكان في الشّعر الأندلسيّ (ابن حمديس أنموذجاً) ، رسالة ماجستير ، الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة ، جامعة العربي بن مهيدي أمّ البواقي ، 2015 م .

5- الرّكابي، ناجي عبّاس مطر، دلالات المكان الشّعريّ – دراسة في شعر حسيب الشّيخ جعفر ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ، العراق ، 2005 م .

6- العامريّ، ساهرة عليوي حسين، المكان في شعر ابن زيدون ، رسالة ماجستير ، جامعة بابل ، 2008 م .

7- العميري، أمل بنت محسن رشيد، المكان في الشّعر الأندلسيّ – عصر ملوك الطّوائف ، رسالة دكتوراه ، المملكة العربيّة السّعوديّة ، جامعة أمّ القرى، 2006 م .

8- معمري، فوّاز، جماليّات المكان في الشّعر الجاهليّ – المعلّقات أنموذجاً ، رسالة دكتوراه ، جامعة محمّد بوضياف – المسيلة ، 2017-2018 م .

المقالات :

1- حمادي ، عبد الرّحمن ، ماهيّة المكان لدى شعراء الجنوب ، العنوان الثّاني والثالث ، دار المنظومة ، (20 و 21) ، السّنة الرّابعة ، 1982 م .

2- سكر ، د. روان ، المكان المغلق في شعر ابن زيدون ، http://elsada.net .

3- الشّرع، علي أحمد حسين، ابن خفاجة وتشكيل النّصّ : الذّات تبحث عن نفسها في إطاري الزّمان والمكان ، مجلّة دراسات ، مج18 ، العدد34 ، عمادة البحث العلميّ ، الجامعة الأردنيّة – عمّان .

4- مكّي ، د. علي محمود ، عبد الكريم بن محمّد القيسي الغرناطيّ – آخر شعراء الأندلس ، مجلّة العربيّ الكويتيّة ، العدد 107 ، 1967 م.

List the sources and references

The Holy Quran

1- Al-Basti, Abdul Karim Al-Qaisi, Diwan of Abdul-Karim Al-Qaisi Al-Basti, edited by: Dr. Sheikha, Juma, and Dr. Trabelsi, Abdel Hadi, Tunisia, the National Institution for Translation, Investigation and Studies, House of Wisdom, 1988 AD.

2- Al-Habouri, Dr. Gomaa Hussein Youssef, Heritage Contents in Andalusian Poetry in the Era of the Almoravids and the Almohads, 1st Edition, Dar Safaa, Amman, Dar Al-Sadeq Cultural Foundation, 1st Edition, 2012 AD.

3- Al-Humairi, Dr. Abdul Wasi', The Poet's Self in the Poetry of Arab Modernity, University Foundation for Studies and Publishing, 1, 1999 AD.

4- Al-Samarrai, Dr. Ibrahim, The Linguistic Structure in Contemporary Arabic Poetry, Dar Al-Shorouk for Publishing and Distribution, Amman, 1st Edition, 2002 AD.

5- Sharifa, Dr. Muhammad, al-Basti, the last poets of Andalusia, Dar al-Gharb al-Islami, Beirut - Lebanon, 1, 1985 AD.

6- Saliba, Jamil, The Philosophical Dictionary (Arabic, French, English, Latin), Lebanese Book House, 1982.

7- Al-Obaidi, Hassan Majid, The Theory of Place in the Philosophy of Ibn Sina, House of General Cultural Affairs, Baghdad, 1st edition, 1987 AD.

8- Gaston, Bachelard, Aesthetics of the Place, see: Ghaleb Halsa, University Institute for Studies, Publishing and Distribution, Lebanon, 5th edition, 2000 AD.

9- Lotman, Yuri, The Problem of Artistic Place, TR: Siza Kassem.

10- Ibn Manzoor, Jamal Al-Din Bin Muhammad Bin Makram, Lisan Al-Arab, Dar Sader, Beirut - Lebanon.

E-books:

1- Said, Talal Zainal, Tamazights of the Modern Poetic Text: Formation, Space, Vision, 2017, http://books.googel.com.about.

Manuscripts:

1- Al-Amri, Yasser Fadel Saleh Abdul-Karim, The Aesthetics of Place and Its Construction in Modern Arabic Poetry in Yemen (1940-2000), Master's Thesis, University of Aden, Yemen, 2009 AD.

2- Bergareq, Rima, The Poetics of Closed Space - Seville Metropolis - Prison as a Model, Master's Thesis, People's Democratic Republic of Algeria, Hadj Lakhdar University - Batna, 2009 AD.

3- Ibn Baghdad, Ahmad, The Poetry of Place in Pre-Islamic Poetry - The Ten Muallaqat as a model, PhD thesis, Djilali Liabis University, Sidi Bel Abbas, 2015-2016 AD.

4- Budab, Nour Al-Iman, The Place in Andalusian Poetry (Ibn Hamdis as a Model), Master's Thesis, People's Democratic Republic of Algeria, Larbi Ben M'hidi Oum El Bouaghi University, 2015.

5- Al-Rakabi, Naji Abbas Matar, The Implications of Poetic Place - A Study in the Poetry of Haseeb Sheikh Jaafar, Master Thesis, University of Baghdad, Iraq, 2005 AD.

6- Al-Amiri, Sahera Aliwi Hussein, The Place in the Poetry of Ibn Zaydun, Master Thesis, Babylon University, 2008.

7- Al-Amiri, Amal bint Mohsin Rashid, The Place in Andalusian Poetry - The Age of Sects Kings, Ph.D. Thesis, Kingdom of Saudi Arabia, Umm Al-Qura University, 2006 AD.

8- Maamari, Fawaz, The Aesthetics of Place in Pre-Islamic Poetry - Al-Muallaqat as a model, PhD thesis, Mohammed Boudiaf University - M'Sila, 2017-2018.

Articles:

1- Hammadi, Abd al-Rahman, The nature of the place among the poets of the south, the second and third titles, Dar al-Nuzmah,
(20 and 21), the fourth year, 1982 AD.
2- Sugar, Dr. Rawan, The Closed Place in the Poetry of Ibn Zaydun, http://elsada.net.
3- Al-Shara', Ali Ahmed Hussein, Ibn Khafajah and Text Formation: The Self Searches for itself in the Frames of Time and Place, Dirasat Journal, Vol. 18, No. 34, Deanship of Scientific Research, University of Jordan - Amman.
4- Makki, Dr. Ali Mahmoud, Abd al-Karim bin Muhammad al-Qaisi al-Ghannati - the last poets of Andalusia, Kuwaiti Al-Arabi Magazine, No. 107, 1967 AD.